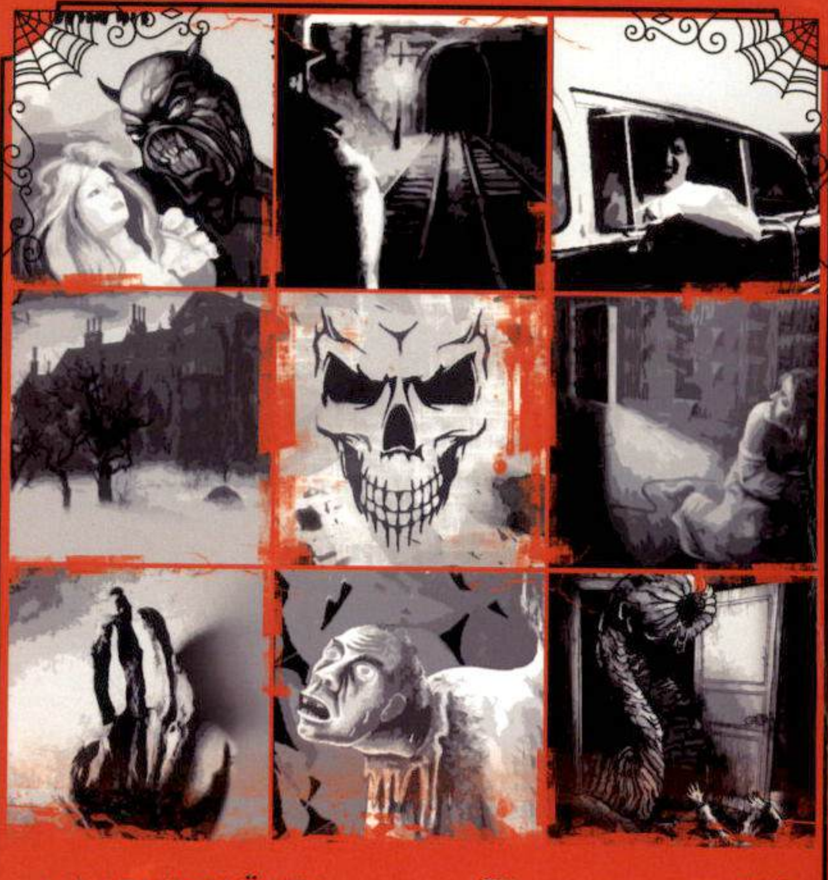


قصص رعب

لوكوندو

LUKUNDOO

ترجمة

محمد عامر

دار اكتب

لوكوندو

لوكوندو

ترجمة : محمد عامر

الطبعة الأولى ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 1951 /2017

I.S.B.N: 978-977-488-511-2



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

لوكوندو

قصص

ترجمة : محمد عامر



دار اكتب للنشر والتوزيع



لعنة على الطريق

ستيفن كينج



لم يخف "ريتشارد كينيل" عندما وقعت عيناه على الصورة أول مرة بساحة البيع في مدينة "روزوود".

كان مذهولًا بها، وكان يملؤه الأمل في العثور على شيءٍ مميزٍ ما، ولكن شيء مخيف؟ لا. لم تواته هذه الفكرة إلّا لاحقًا ("ليس قبل أن يتأخر الوقت كثيرًا" كما كتب ربما في إحدى رواياته التي حققت نجاحًا كبيرًا)، لم يكن يتوقع أن يواتيه نفس الشعور الذي ينتابه من أثر صنف من أصناف المخدرات المحرمة التي كان يتعاطاها في شبابه.

كان قد توجه إلى بوسطن ليشارك في "مؤتمر نيوإنجلاند الأدبي" بعنوان "ضريبة الشهرة". بإمكانك التعويل على هذا المؤتمر للخروج بموضوعاتٍ مماثلة، وكان "كينيل" يرى أن لهذا الأمر وقعٌ مريح. قاد سيارته لمسافة مائتين وستين ميلًا، آخذًا الطريق من "ديلي" – بدلًا من السفر جوًا – لأنه يعاني من أزمةٍ ما في حبكة كتابه الأخير، لذا فبعض الهدوء ضروري له لمحاولة حلها.

وفي المؤتمر، جلس على مائدة متلقيًا الأسئلة من الحاضرين – المفترض أنهم واعون بهذه الأمور – وقد سألوه من أين يأتي بأفكاره، وما إذا أصابته بالخوف يومًا. غادر "ريتشارد" المدينة سالكًا طريق "جسر توبين"، ثم أخذ "الطريق 1". كانت هذه أول مرة يأخذ فيها الطريق الرئيسي السريع، وخصوصًا وأنه يعمل على حل مشكلةٍ ما في باله. أخذه الطريق إلى حالةٍ من حالات أحلام اليقظة، صحيح أنها أدخلت في نفسه الراحة، ولكنه لم يخرج منها بأي حلٍ إبداعي. ومع ذلك، كان الاختناق المروري بمثابة حافزٍ أشعل بداخله بعض النشاط الفكري، وفي أحيانٍ أخرى كان يوقظ إبداعه من سباته.

كان يفترض مسبقًا أن نقاده سيلومونه على استخدام كلماتٍ بعينها، ففي إحدى إصدارات جريدة "إسكواير" العام السابق افتتح الناقد "برادلي سيمونز" مقالته النقدية الخاصة بروايته "مدينة الكوابيس" قائلًا: "لقد عانى ريتشاد كينيل الذي تشبه كتاباته جرائم جيفري دامر المقززة من حالةٍ جديدة من القيء المزمن، وأطلق على كومة نفاياته الأخيرة اسم "مدينة الكوابيس"."

مرّ "ريتشارد" في "الطريق 1" على مدنٍ ثلاث هي "ريفير" و"مالدين" و"إيفريت"، مارًا على طول الساحل باتجاه مدينة "نيوبيري بورت". جاءت مدينة "روزوود" بعد "نيوبيري بورت" جنوب حدود ولايتي "ماساتشوستس" و"نيوهامبشاير". صادف "ريتشارد" على بعد ميل تقريبًا بعد قلب المدينة مجموعة من المنتجات زهيدة الثمن

المعروضة على عشب أحد المنازل ذات الطابقين. كانت هناك علامة تحمل عبارة "ساحة بيع" مستندة على موقدٍ كهربائي أخضر اللون. اصطفت السيارات على جانبي الطريق، وتسببت في اختناقٍ مروري كان جديرًا بتلقي السباب والشتائم من المسافرين غير المهتمين بالمرة بغرابة ساحة البيع تلك. كان "ريتشارد" يحب ساحات البيع، وخصوصًا صناديق الكتب القديمة التي قد يصدف وجودها هناك أحيانًا. مرّ بسيارته وسط ذلك الاختناق، ثم ركن سيارته ماركة "أودي" على رأس صف السيارات المتجهة إلى مدينتي "ماين" و"نيوهامبشاير"، ثم ارتجل من سيارته ورجع إلى الخلف.

كان هناك ما يقارب عشرة أشخاص يقفون على أعشابٍ متناثرة هنا وهناك بجزيرة "كيب كود". على الناحية اليسرى من الممشى الإسمنتي كان هناك تلفاز كبير أسفل منه أربع طفّايات سجائر لم تحول دون إفساد العشب. بالأعلى وجد "ريتشارد" لافتة مكتوب عليها "اطلب الآن وانتظر المفاجأة". خرج من التلفاز سلك كهربائي ممدود بوصلة كهربائية عبر الباب الأمامي المفتوح. كانت هناك امرأة سمينة تجلس على مقعدٍ فوق العشب، تظلها مظلة ملونة ذات زخارفٍ صدفية مكتوب عليها كلمة "تشيترانو" خلف المقعد كانت هناك طاولة لعب مربعة عليها علبة سجائر، وقطعة من الورق عليها علامة مكتوبة بخط اليد وعبارة تقول "الدفع نقدًا والبضاعة المباعة لا تُرد ولا تستبدل". كان التلفاز يعمل ويعرض أحد المسلسلات الطويلة يشاهده شابان جميلان يبدوان على وشك ممارسة الجنس بشكل غير آمن، نظرت المرأة السمينة صوب "ريتشارد"، ثم أدارت وجهها ناحية

التلفاز من جديد، نظرت إليه للحظة، ثم عاودت النظر صوب "ريتشارد" ثانيةً. ولكن هذه المرة كان فمها مفتوحًا بعض الشيء.

فكّر "ريتشارد" قليلًا، ثم أخذ يبحث عن صندوق خمر مليء بالأغلفة الورقية كان أمامه بلا شك.

لم يرَ الأغلفة الورقية حوله، ولكن وقعت عيناه على صورة تتدلى ناحية لوحة حديدية ومثبتة في مكانها بصندوقي غسيل من البلاستيك، ثم توقفت أنفاسه قبل وصولها لرئتيه. أراد أن يحصل على تلك الصورة على الفور. سار صوب الصورة باستهتارٍ مبالغ فيه ثم وضع ركبته على الأرض أمام الصورة. كانت الصورة ملونة بألوان مائية وجميلة جدًا ذات ذوقٍ عالٍ. لم يكن "ريتشارد" مهتمًا بذلك، فالناحية الفنية لم تكن تهمه (وهو أمر أشار إليه ناقدو كتابه بكل وضوح). كان يحب مضمون العمل الفني، وكلما كان المضمون مقلقًا كان أفضل له. تلك الصورة كانت ذات قيمة عالية من هذه الناحية. نزل "ريتشارد" على ركبتيه بين صندوقي الغسيل المملوئين بكومة من الأجهزة الصغيرة، ثم تحسّس بأصابعه واجهة الصورة الزجاجية. نظر حوله سريعًا باحثًا عن صورٍ أخرى مثلها، دون أي يجد ضالته ... لم يجد إلا مجموعة فنية لفرقة "ليتل بو بيبس"، وصورة ثانية لأيادٍ مرفوعة بالدعاء إلى السماء، وصورة ثالثة لمجموعة من الكلاب تلعب القمار.

عاد إلى الصورة المؤطرة ذات الألوان المائية، ثم تخيل نفسه ينقل حقيبته إلى المقعد الخلفي لسيارته حتى تستقر الصورة بسلام في حقيبة السيارة.

عرضت الصورة رجل يمسك بعجلة قيادة سيارة معدّلة – سيارة "جراند آم" أو "جي تي إكس" على الأرجح – ذات سقف قابل للطي، تعبر "جسر توبين" وقت غروب الشمس. كان سقف السيارة مطويًا، جاعلًا السيارة السوداء تبدو كسيارة غير مؤهلة. كانت ذراع الرجل اليسرى مستندة على باب السيارة، ومعصمه الأيمن مثني بثقة على عجلة القيادة. اكتست السماء خلف الرجل ببقعٍ متناثرة صفراء ورمادية تتخللها بعض الخيوط الوردية. كان شعر الرجل أشقرًا نحيلًا يتدلى على جبهته، وقد بدا مبتسمًا؛ حيث كشفت شفتاه المنبسطتان عن أسنانه؛ أو أنيابه بتعبيرٍ أصح.

قال "ريتشارد" لنفسه:

– ربما تشير هذه الأنياب إلى شيءٍ ما.. ربما يكون هذا الرجل آكلًا للحوم البشر.

أحبّ ذلك؛ أحبّ فكرة أن يكون هناك آكل لحوم بشر يقود سيارة على "جسر توبين" عند غروب الشمس. كان يعرف أن أغلب الحاضرين المناقشين في "مؤتمر نيوإنجلاند الأدبي" سيقولون:

– أوه، عظيم! صورة عظيمة لـــ"ريتشارد كينيل"؛ يبدو أنه بحاجة لها لتسليك حلقومه من أجل إطلاق حالةٍ أخرى من القيء المزمن. ولكن أغلب هؤلاء الناس جهلة، وكلما ازداد نجاح عمله ازداد جهلهم، والأدهى من ذلك أنهم كانوا يثمّنون هذا الجهل ويدللونه

كما يدلل بعض الناس لسببٍ غير مفهوم كلابهم الصغيرة الغبية المزعجة التي تصيح على الزائرين وتعّض كواحل صبي توصيل الجرائد. لم يكن "ريتشارد" معجبًا بتلك الرسمة لأنه يكتب قصصًا مرعبة؛ بل كان يكتب قصصًا مرعبة لأنه كان ينجذب لأمورٍ مثل تلك الرسمة. كان قرّاؤه يرسلون إليه أشياءً – صورًا في أغلب الأحيان – ولكنه كان يلقي أكثرهم بعيدًا، ليس لرداءة تلك الأشياء، بل لأنها كانت مملة ومتوقعة بشكلٍ كبير. فقد أرسل إليه أحد قرّائه من "أوماها" تمثالًا سيراميكيًا لقردٍ يصرخ في رعب شديد بينما رأسه محشورة بباب إحدى الثلاجات؛ وبالرغم من ذلك وجد نفسه يحتفظ بهذا التمثال. لم يكن التمثال مصنوعًا بحرفية، ولكن كان يتميز بلمسة فنية استثنائية لمست قلب "ريتشارد". أما تلك الصورة، فقد كانت تتميز بجودةٍ مماثلة، ولكن ربما أفضل ... أفضل بكثير.

اقترب "ريتشارد" من الصورة أكثر، وكان على وشك التقاطها على الفور ووضعها تحت ذراعه، معلنًا بذلك عن نواياه بالاحتفاظ بها، ولكن باغته صوتٌ من خلفه:

– ألست "ريتشارد كينيل"؟

قفز "ريتشارد" واستدار، وجد المرأة السمينة تقف خلفه مباشرةً وقد احتل جسمها السمين أغلب المشهد. وضعت أحمر شفاه قبل أن تقترب منه، حتى بدت شفتاها تقطر دمًا.

ابتسم وردّ عليها:

– أجل، أنا هو.

لقطت عيناها الصورة، وقالت له بابتسامةٍ متكلفة:

– كان يجب أن أعرف أن صورةٍ كتلك ستعجبك ... فهي تليق بك كثيرًا.

ارتسمت على شفتيه ابتسامته الشهيرة، وقال:

– فعلًا، أليس كذلك؟ كم تريدين مقابل الصورة؟

– خمسة وأربعون دولارًا ... سأكون أمينة معك، كان سعرها الأولي سبعين دولارًا، ولكن لم يعجب بها أحد ... والآن بعد أن انخفضت قيمتها ستحصل عليها بثلاثين دولارًا غدًا.

اتسعت شفتا المرأة السمينة المبتسمتان، ولكن بشكل مخيف هذه المرة، لدرجة أن بعض مياه بصاقها تجمعت على جانبي فمها المنبسط.

قال لها:

– لا أظن أني أريد عرضكِ الأخير، سأكتب لكِ شيكًا الآن.

استمرت ابتسامة المرأة المخيفة في الاتساع، حتى بدت كتمثال منحوت لـــلمخرج "جون واترز" أو لوحة لـــلممثلة "شيرلي تيمبل"، ثم قالت:

– من المفترض حقًا ألّا أقبل شيكات ... ولكن حسنًا.

بدا صوتها وكأنها فتاة مراهقة وافقت أخيرًا على مضاجعة صديقها.. ثم أتبعت:

– بما أنك ستخرج قلمك، هل بإمكانك كتابة إهداء لابنتي؟ اسمها "روبن"

– اسم جميل!

ردّ عليها فورًا، ثم أخذ الصورة وتبع المرأة السمينة نحو طاولة اللعب المربعة. لم يعد الشابان الشبقان يظهران على شاشة التلفاز، واستبدلا بصورة امرأة عجوز تلتهم رقائق النخالة.

قالت المرأة السمينة:

– إن "روبن" تقرأ كل كتبك ... من أين تأتي بكل تلك الأفكار المجنونة؟

ابتسم "ريتشارد" أكثر من أي وقت سبق وقال:

– لا أعرف ... تلك الأفكار تأتينا من نفسها، أليس ذلك مذهلًا؟

كان حارس ساحة البيع امرأة تُدعى "جودي ديمينت" تقطن في البيت المجاور. عندما سألها "ريتشارد" عن الفنان صاحب الصورة، قالت أن "بوبي هاستينجس" رسمها، وهو أيضًا السبب في بيعها أعماله. ثم أردفت قائلةً:

– هذه هي اللوحة الوحيدة التي لم يحرقها "بوبي".. كم أنتِ بائسة يا "إيريس"! إنها الوحيدة التي أشعر بالأسى حيالها. لا أعتقد أن "جورج" اهتم بها كثيرًا. أعرف أنه لا يعي سبب رغبتها في بيع البيت.

التفت عيناها اللتان توسطتا وجهها الكبير الجميل الذي ينبئ عن سنها الحقيقي، ثم أخذت شيك "ريتشارد" الذي مزّقه وأعطته فاتورة مدون فيها كل الأشياء التي باعتها والأسعار التي حصلت عليها في مقابلها. قالت له:

– اكتب إهداءً لـ"روبن" ... إهداءً جميلًا من أجلها.

ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة من جديد، وكأنما إحدى معارفه القديمة التي كان يود لو أنها ميتة.

قال "ريتشارد":

– أوه، حسنًا!

كتب إهداءً معتادًا شاكرًا فيه "روبن" على قراءتها كتبه. لم ينظر "ريتشارد" إلى ما كتبه، ولم يفكر فيه أيضًا؛ فهو يفعل ذلك منذ خمسة وعشرين عامًا. أردف قائلًا:

– أخبريني عن الصورة وراسمها.

طوت "جودي ديمينت" يديها الممتلئتين، وأدّت كامرأة على وشك أن تحكي قصتها المفضلة.

– كان "بوبي" في عامه الثالث والعشرين حينما قرر الانتحار في ربيع هذا العام، هل تصدق هذا؟ كان عبقريًا مهووسًا، ولكنه كان مستقرًا في بيته.

التفت عيناها من جديد وطلبت منه تخيل الموقف مجددًا، ثم أتبعت:

– لا شك أنه كان يمتلك ما بين سبعين وثمانين لوحة، بالإضافة إلى كل كراسات رسمه ... كانوا بالطابق الأرضي.

ثم أشارت بذقنها تجاه جزيرة "كيب كود"، ومن ثم نظرت إلى صورة الرجل الشيطاني الذي يقود سيارته عبر "جسر توبين" لدى غروب الشمس، وأردفت:

– كانت "آيريس" – والدة "بوبي" – تقول أن أغلب تلك اللوحات رديئة فعلًا، بل وأردء من تلك أيضًا ... لدرجة يقشعر لها البدن.

انخفض صوتها وبدأت بالهمس وهي تنظر تجاه امرأة تحملق في طاقم من الأواني الفضية المتباينة ومجموعة جيدة من زجاجات "ماكدونالد" البلاستيكية التي ظهرت في فيلم "حبيبتي، لقد صغّرت الأطفال"، ثم قالت:

– أغلب لوحاته كان بها محتوى جنسي.

انفعل "ريتشارد" قليلًا قائلًا:

– أوه، لا!

– ظهرت أسوء أعماله تحت تأثير المخدرات ... وجده الناس بعد أن شنق نفسه في الطابق السفلي، حيث اعتاد على الرسم. وجدوا أيضًا مائة زجاجة صغيرة من الكوكايين ... أليست المخدرات بشعة، سيد "ريتشارد"؟

– بكل تأكيد.

– على كل حال، أعتقد أنه في النهاية قد ضاق به الأمر حتى أحرق كل رسماته ولوحاته في الفناء الخلفي، إلا هذه اللوحة على ما أعتقد. ثم شنق نفسه في الطابق السفلي، وترك ورقة معلقة بقميصه قائلًا فيها: "لم أعد أتحمل ما يجري لي". أليس هذا أمر بشع، سيد "ريتشارد"؟ أليس هذا أبشع شيء قد تسمع به يومًا؟

ردّ عليها بصدق شديد:

– أجل، ليس هناك أبشع من هذا.

– كما أقول دومًا، أعتقد أن "جورج" سيسكن هذا البيت، لو كان الأمر بيده.

أخذت "جودي ديمينت" الورقة التي تحمل إهدائه لـــ"روبن" ووضعتها مع شيكه، ثم هزّت رأسها، وكأن التشابه بين التوقيعين يذهلها، ثم قالت:

– ولكن الرجال مختلفون.

– فعلًا؟

– أوه، أجل.. الرجال أقل حساسية من النساء بكثير. كان "بوبي" في نهاية حياتة مجرد جلد على عظم، يرتدي ملابسًا قذرة طوال الوقت ذات رائحة كريهة نفّاذة. كان يرتدي نفس القميص ذهابًا وإيابًا ... ذلك القميص كان عليه صورة فرق "لد زيبلين" الموسيقية. كانت عيناه حمراوتين وخدّاه ضئيلين تتناثر عليهما بعض الشعيرات التي لا ترقى لمرتبة اللحية، وبثور هنا وهناك وكأنه عاد لمرحلة المراهقة من جديد، ولكنها أحبته، لأن الأم لا ترى كل تلك العيوب.

جاءت المرأة التي كانت تحملق في طاقم الأواني الفضية والزجاجات وفي يدها مجموعة من مفارش "ستار وورز" أخذت السيدة "ديمينت" خمسة دولارت في مقابلها، ثم دوّنت مبيعاها في سجل مبيعاها وكتبت "دستة مسّاكات وقطع قماش مختلفة الأشكال"، ثم عاودت حديثها مع "ريتشارد" من جديد.

– توجها إلى "أريزونا" للاستقرار مع جماعة "أيريس". أعرف أن "جورج" يبحث عن عمل في مدينة "فلاجستاف"؛ فهو رسّام، ولكن

لا أعرف ما إذا عثر على عملٍ أم لا. وإن عثر على عملٍ بالفعل، فإني لا أعتقد أننا سنراهما من جديد هنا في "روزوود". اختارت "أيريس" كل الأشياء التي أرادتني أن أبيعها، وقالت لي أن بإمكاني الحصول على نسبة 20% من المبيعات لوقت الحاجة.

تنهّدت قليلًا ثم أردفت:

– سأرسل ليها شيكًا ببقية المبلغ ... ولن يبقى إلا القليل.

ردّ عليها "ريتشارد":

– فعلًا، شيء مؤسف جدًا أنه أحرق بقية لوحاته، لأن بقية الأشياء التي تعرضيها للبيع في ساحتك هذه مجرد قمامة ... اعذري جهلي، ولكن ما هذا؟

أدار "ريتشارد" اللوحة، وأشار إلى شريط ملتصق بها من الخلف.

– هذا اسم اللوحة على ما أعتقد.

– وما هو اسم اللوحة؟

أمسك باللوحة من جانبيها ورفعها حتى تتمكن هي من قراءة الاسم، وبهذا صارت اللوحة أمام عينيه مباشرةً، وصار يتفحصها جيدًا. مرةً أخرى وجد نفسه منجذبًا نحو غرابة مكنون اللوحة وبساطته. طفل يمسك بعجلة قيادة سيارة ... طفل ذو ابتسامة كريهة خبيثة برزت معها أسنانه الأكثر خبثًا.

فكّر بداخله قليلًا قائلًا:

– اسمٌ مناسب ... لو أن اسمًا ما سيناسب هذه اللوحة، فهذا هو الاسم.

قرأت السيدة اسم اللوحة وقالت:

– لعنة على الطريق ... لم ألحظ أبدًا اسم اللوحة عندما كان يخرجها أولادي من مكانها. هل هذا هو اسم اللوحة في اعتقادك؟

– لابد وأنه هو ...

لم يستطع "ريتشارد" إزاحة بصره بعيدًا عن ابتسامة ذلك الطفل الأشقر، وكأن تلك الابتسامة تقول له: "إني أعرف شيئًا ... شيء لا يمكنك أن تعرفه".

قالت "جودي ذيمينت":

– حسنًا، أعتقد أنه صار واجبًا عليك أن تصدق أن الرجل الذي أبدع هذه اللوحة كان تحت تأثير المخدرات.

لاحظ "ريتشارد" ضيقًا وحزنًا في كلماتها.

– لا عجب أنه قتل نفسه وكسر قلب أمه.

قال "ريتشارد"، ممسكًا باللوحة تحت ذراعه:

– يجب أن أتوجه نحو الشمال بنفسي ... شكرًا لك على ...

– سيد "ريتشارد"؟

– نعم؟

– هل يمكنني الاطلاع على رخصة قيادتك؟

لم يكن طلبها ساخرًا أو ظريفًا أبدًا من جانبها، ثم أردفت:

– يجب أن أسجّل الرقم على ظهر الشيك.

– بالتأكيد.

وضع "ريتشارد" اللوحة جانبًا حتى يمكنه إخراج محفظته.

توقفت المرأة التي اشترت مفارش "ستار وورز" في طريق عودتها إلى سيارتها لمشاهدة بعض المسلسلات الطويلة المعروضة على التلفاز. وقعت عينا المرأة على اللوحة المائلة تجاه قدمي "ريتشارد"، وقالت:

– أوه، من يشتري شيء قديم وقبيح مثل هذا؟ لو كنت أنا، لفكّرت فيها كلما انطفئت الأنوار.

سألها "ريتشارد":

– ما بال اللوحة؟

***

تقطن "العمة ترودي"، عمة "ريتشارد"، في "ويلز"، والتي تقع على بعد ستة أميالٍ شمال حدود "ماين" و"نيوهامبشاير". انطلق "ريتشارد" صوب المخرج الملتف حول خزان ماء "ويلز"، وعليه لوحة تقول "حافظوا على نظافة ماين ... اجلبوا لها بعض المال" على ارتفاع أربعة أقدام من الأرض. وبعد مرور خمس دقائق، وجد "ريتشارد" نفسه يتجه صوب الطريق المؤدي إلى بيتها ذي السقف الخشبي. ليس هناك تلفاز ذو أقدامٍ غائصة في العشب في بيت "العمة ترودي" ... فقط تجمعات لطيفة من الزهور. داهمت "ريتشارد" رغبة في التبول، ولم تكن تلك الرغبة حاضرة منذ فترة قصيرة، وإلا لكان تخلص منها في إحدى الاستراحات المنتشرة على جانبي الطريق، ولكن كان ذلك ليعطله عن الاستماع لبعض النميمة الأسرية التي يحبها. كانت "العمة ترودي" أستاذة في النميمة؛ تعرف كل صغيرة وكبيرة عن كل شيء. غير ذلك كان يريد أن يريها اللوحة التي حصل عليها مؤخرًا.

خرجت العمة لتقابله، واستقبلته بالأحضان والقبلات الحنونة التي جعلته يرتجف كطفلٍ صغير.

قال لها:

– أتريدين رؤية شيءٍ جديد؟ لدى شيء سيذهلك.

– يا لها من مفاجأةٍ ساحرة!

وضعت العمة مرفقيها على كفيها ونظرت إليه في إثارة.

فتح "ريتشارد" صندوق سيارته وأخرج لوحته الجديدة. تفجأت العمة باللوحة على الفور، ولكن ليس بالصورة التي تخيلها. تغير لون وجهها تمامًا ... لم يرَ شيئًا كهذا في حياته قط.

قالت بصوتٍ مختنق:

– إنها مروعة! أكرهها ... إني أتفهم جيدًا ما الذي أعجبك فيها يا "ريتشي"، ولكن الصورة تبدو حقيقية فعلًا. أطع أوامري وضع اللوحة في صندوق سيارتك. ولكن عندما مررت بالقرب من "نهر ساكو"، لِمَ لم تلقِ باللوحة فيه؟

حملق "ريتشارد" إلى عمته بفاهٍ مفتوح، متعجبًا من شفتيها المضغوطتين في محاولةٍ منها لوقف ارتعادهما ... حتى كفيها الطويلين النحيفين لم يكونا ممسكين فقط بمرفقيها، بل متشبثين بهما، وكأنهما يمنعانهما من الطيران بعيدًا عنها. بدت العمة حينها وكأنها في عامها الحادي والتسعين لا الحادي والستين.

– عمتي؟!

قالها بتردد وهو لا يعرف ما يحدث بالضبط.

– عمتي؟! ما الذي جرى؟

– هذا!

أطلقت يدها اليمنى وأشارت إلى اللوحة، ثم قالت:

- لا أعرف كيف لا تشعر بما يسكن تلك اللوحة ... كيف وأنت كاتب ذو خيالٍ خصب؟!

الآن فقط، بدأ يشعر بشيءٍ ما جعله يتحسس دفتر شيكاته لأول مرة. ولكن "العمة ترودي" كانت تشعر بشيءٍ مختلف ... شيء أكثر رعبًا مما يتخيل. قلب "ريتشارد" اللوحة حتى يراها (بعد أن كان ماسكًا إياها وواجهتها ناحية عمته وظهرها الذي عليه الشريط ناحيته هو)، ونظر إليها مجددًا. ولكن ما شاهده هذه المرة أشعره بضربتين في صدره وبطنه.

الصورة تغيرت تمامًا! تلك كانت الضربة الأولى. صحيح أن الصورة لم تتغير كثيرًا، لكن هناك تغيير واضح طرأ عليها. تلك الابتسامة التي كانت تكسو وجه ذلك الرجل الأشقر صارت أعرض، وأبرزت معها المزيد من أنيابه ... أنياب آكل لحوم البشر. حدقت عينا الرجل أكثر وصارتا نصف مغمضتين ... صار وجه الرجل أكثر خبثًا وأشد قرفًا مما كان.

درجة الابتسامة.. مشهد الأسنان وهي تتسع شيئًا فشيئًا.. العينان اللتان صارتا محدقتين أكثر فأكثر ... كل الأمور الشخصية الجميلة التيَ تغيرت، قد يخطئ المرء بشأن أمورٍ كتلك، وهو بالطبع لم يدرس كل تفصيلة من تفاصيل اللوحة قبل شرائها. أيضًا تلك المرأة التي تُدعى "جودي ديمينت" كانت تشتيتًا كبيرًا بالنسبة له، وخصوصًا بعد ثرثرتها المملة.

ولكن، جاءت الضربة الثانية أقوى بكثير من الأولى، ولم يكن التغيير فيها بسيطًا مثل سابقيه. فعندما استقرت اللوحة في وسط ظلام سيارته "الأودي"، تغير وضع ذراع الرجل الأشقر اليسرى التي كانت مستقرة على باب السيارة، حتى صار بإمكان "ريتشارد" أن يرى وشمًا لم يكن ظاهرًا من قبل. كان الوشم على هيئة خنجر ذي طرفٍ دام ملفوف بأوراق الكروم، وأسفل منه بعض الكلمات سهلة القراءة ... (الموت ولا ...)، لم تكن الكلمة الخفية المتممة للعبارة تحتاج إلى أن تكون كاتبًا شهيرًا كي تعرف ما هي. ها قد اكتملت العبارة وصارت (الموت ولا العار). بدا الأمر وكأن ذلك الرجل الأشقر مجرد مسافر يضع وشمًا جالبًا للنحس على ذراعٍ واحدة ووشمًا على هيئة "آس بستوني" على الذراع الأخرى.

سأل عمته قائلًا:

– أتكرهينها؟

– أجل.

والآن صار يرى أمرًا أكثر غرابة، فقد أزاحت عمته وجهها عنه، وكأنها تنظر إلى الشارع (الذي كان يغلفه النعاس والفضاء في منتصف نهارٍ مشمس) كي لا تنظر إلى اللوحة.

– اللوحة أثارت اشمئزاز عمتك في الواقع، والآن ضعها بعيدًا وادخل إلى البيت ... لابد أنك بحاجة إلى استعمال دورة المياة.

هدأت نفس "العمة ترودي" بعدما وضع "ريتشارد" اللوحة ذات الألوان المائية في صندوق سيارته. جلسا وتحدثا سويًا عن والدته "باسادينا"، وأخته "باستون روج"، وأيضًا زوجته السابقة "سالي" أو كما يُطلق عليها أحيانًا "ناشوا".

كانت "سالي" امرأة واسعة الخيال؛ فقد أدارت مأوى للحيوانات في مقطورة سكة حديدية مزدوجة، وأيضًا كانت تنشر مجلتين شهريًا. كانت المجلة الأولى بعنوان "ناجون" مليئة بالقصص الخيالية، ومعها بعض الحكايات الواقعية عن العالم الروحي، أما المجلة الأخرى بعنوان "زائرون" فكانت عبارة عن تقارير عن أشخاص قابلوا كائنات فضائية. لم يكن "ريتشارد" راغبًا في أن يصبح من هواة الفنتازيا والرعب، فزوجته "سالي" جعلته يكتفي من تلك الأمور.

صاحبت "العمة ترودي" "ريتشارد" إلى السيارة، وقد صارت الساعة الرابعة والنصف ظهرًا، بعد أن رفض دعوتها الإجبارية على الغداء، قائلًا لها:

– إن تحركت الآن سأصبح في مدينة "ديري" آخر النهار.

– حسنًا، ومتأسفة على سوء تصرفي حيال لوحتك، خصوصًا وأني متأكد من أنها أعجبتك، فلطالما أعجبتك تلك الأمور ... الغريبة. لابد وأن الصورة قد صدمتني قليلًا ... ذلك الوجه البشع مرسوم وكأننا نظر إليه مباشرةً ... وهو ينظر إلينا كذلك.

ابتسم "ريتشارد" وطبع قبلة على مقدمة أنفها وقال:

– خيالك واسع بعض الشيء يا عزيزتي.

– طبعًا، إنها وراثة في هذه العائلة ... ألا تريد الذهاب لدورة المياة مجددًا قبل رحيلك؟

هزّ رأسه وقال:

– لم أتوقف عند بيتك من أجل هذا على أي حال.

– لَم توقفت إذًا؟

ابتسم وأتبع:

– لأنك تعرفين من الشرير ومن الطيب، ولستِ تخافين المصارحة بشيءٍ تعرفينه.

– اذهب من هنا فورًا!

أخذت تدفع بكتفه بسعادة وأردفت:

– لو كنت مكانك لتوجهت للبيت فورًا، دون أن أمكث طويلًا وذلك الرجل المقزز يجلس خلفي في الظلام ... حتى ولو كان مستقرًا في صندوق سيارتي. أعنى، هل رأيت أسنانه؟ كم هي مقرفة!

توجه إلى الطريق الرئيسي وانطلق سريعًا بسيارته مارًا بجوار المنطقة الخدمية بمدينة "ماين"، ثم قرر فجأة أن يلقي نظرة أخرى على

اللوحة. بعض من عدم الارتياح للوحة قد انتقل إليه بالفعل كجرثومة، ولكن لم تكن هذه مشكلته الحقيقية. المشكلة كانت اعتقاده بأن اللوحة قد تغيرت بالفعل.

تتميز المنطقة الخدمية بمحلات عظيمة تجذب الذوَاقة على الطريق؛ فهناك مثلا شطائر البرجر اللذيذة التي يقدمها مطعم "روي روجرز"، ومخاريط الآيس كريم الشهية التي تصنعها سلسلة "تي سي بي واي"، هذا بخلاف بعض الحشائش المتواجدة في نطاقاتٍ ضيقة والمتناثرة هنا وهناك وممشى الكلاب في الخلف. ركن "ريتشارد" سيارته بجوار سيارة نقل يظهر من لوحاتها أنها من ولاية "ميزوري". كان قد توجه إلى "بوسطن" لإيجاد حل لبعض المشكلات التي تعاني منها حبكة كتابه الجديد، وهو أمر ساخر للغاية. فقد قضى كل وقته على الطريق يفكر فيما سيقوله على مائدة المناقشات إذا طُرحت عليه بعض الأسئلة، ولكنه لم يجد أية إجابة. إن عرف الحاضرون أنه لا يذكر من أين أتت فكرة كتابه الجديد، سيريدون حينها معرفة من أين أتى الباعث على تلك الفكرة. تلك التساؤلات أثارت رعبه حقًا.

والآن، وهو في طريق عودته لا يحتل فكره إلا تلك اللوحة الملعونة.

هل تغيرت اللوحة حقًا؟ ولكن ماذا إن تحرك حقًا؟ ماذا إن تغير وضع ذراع ذلك الرجل الأشقر حتى صار بإمكانه مشاهدة الوشم

الذي كان خفيًا عليه من قبل؟ بإمكانه الآن كتابة عمود في إحدى نشرتي "سالي"، زوجته السابقة. بإمكانه كتابة مسلسل من أربع حلقات عن هذا الموضوع ... ولكن ماذا إن لم تتغير اللوحة حقًا؟ ماذا إذًا؟ هل كان يهلوس حينها؟ هل انهار عقله فجأة؟ بالطبع لا، فحياته تسير وفق نظامٍ صارم، وكان مرتاحًا لذلك. حينها فقط تحول إعجابه بتلك اللوحة إلى شيءٍ آخر ... شيء أكثر ظلمة.

خرج من السيارة وقال لنفسه بصوتٍ عال:

– أوه، اللعنة ... لم أشاهدها بصورة حقيقية في المرة الأولى. حسنًا، ربما ... ربما ...

لم تكن هذه أول مرة يخطئ فيها عقله بهذا الشكل ... هذا الأمر ليس بجديد عليه، ففي بعض الأحيان يذهب خياله بعيدًا.

– أجل، ذهب خيالي بعيدًا بعض الشيء.

فتح صندوق سيارته وأخرج اللوحة ثم نظر إليها بدون أن يلتقط أنفاسه، وبعد مرور عشر ثوانٍ من حملقته في اللوحة، صار خائفًا فعلًا من اللوحة ... دب الخوف في صدره كمن رأى ثعبانًا وسط الأشجار، أو كمن يخشى لدغة حشرة سامة.

الآن فقط صار الرجل الأشقر يبتسم له بجنون ... أجل يبتسم له، كان "ريتشارد" متأكدًا من ذلك. أنياب آكلي لحوم البشر تلك

صارت بارزة لدرجة جعلت تجويف فمه واضحًا للعيان. لمعت عيناه أكثر وأكثر وصارت وكأنهما تضحكان. هذه المرة لم يكن "جسر توبين" في اللوحة، واختفت سماء "بوسطن" كذلك، ومعها غروب الشمس. غيّم الظلام على اللوحة، فقط ضوء صادر عن إحدى مصابيح الطريق جعل السيارة وقائدها المريب واضحين، ولكنه ضوء معتم جعل الطريق والسيارة يلمعان قليلًا. بدا وكأن السيارة (التي تأكد أنها ماركة "جراند آم") على مشارف مدينة صغيرة على "الطريق 1"، وتأكد له أيضًا أن تلك المدينة هي نفسها التي كان فيها منذ سويعات قليلة.

تمتم قليلًا وقال:

- "روزوود" ... هذه "روزوود" ... أنا متأكد تمامًا!

تلك اللعنة على الطريق تتجه شمالًا آتيةً من "الطريق 1" مثلما كان هو منذ قليل. هذه المرة ظلت ذراع الرجل الأشقر مستندة على نافذة السيارة، ولكنها التفت قليلًا تجاه وضعها الأول، وبذلك لم يكن باستطاعة "ريتشارد" مشاهدة الوشم مجددًا، ولكنه يعلم أن الوشم كان موجودًا ... أليس كذلك؟ أجل كان موجودًا بالفعل.

بدا الرجل وكأنه أحد هواة فرقة "ميتاليكا" الموسيقية فرّ لتوه من مصحة نفسية كان مودعًا بها لارتكابه جرائم مجنونة.

- يا رباه!

همس "ريتشارد" وصدر منه صوت وكأنه صوت شخصٍ آخر. تسربت الحيوية من جسمه كما تتسرب المياه من صندوقٍ مثقوب من الأسفل، ثم جلس على رصيف يفصل بين مكان ركن السيارات وممشى الكلاب. فهم فجأة أن هذه هي الحقيقة التي غابت عنه في كل قصصه، هذا ما يشعر به الناس عندما يصادفون شيئًا لا يُعقل. تشعر وكأنك تترف حتى الموت ... تترف داخل رأسك فقط.

قال بصوتٍ مختنق:

– لا عجب أن من رسم هذه اللوحة قد انتحر.

ظل يحملق في اللوحة، في تلك الابتسامة المتوحشة، وهاتين العينين القاسيتين الغبيتين.

كانت السيدة "جودي ديمينت" قد قالت من قبل:

– "لقد ترك ورقة معلقة بقميصه قائلًا فيها: "لم أعد أحتمل ما يجري لي". أليس هذا أمرًا بشعًا، سيد "ريتشارد"؟

أجل الأمر بشع، بشع جدًا.

استقام "ريتشارد" وأمسك باللوحة من أعلاها وأخذ يمشي بسرعة في ممشى الكلاب. ظل ينظر إلى الأمام متوخيًا روث بعض الكلاب. لم ينظر إلى اللوحة، ثم بدأت قدماه بالتعثر والانفلات، إلا أنهما كانتا تحملانه جيدًا. في الأمام وبالقرب من حزامٍ من الأشجار بنهاية المنطقة

الخدمية كانت هناك فتاة شابة جميلة ترتدي شورتًا أبيض وقميصًا أحمر، ومعها كلب من نوع "كوكر سبانيل". بدأت تبتسم لـــ"ريتشارد"، ثم رأت شيئًا في وجهه اختفت معه ابتسامتها على الفور. توجهت الفتاة يسارًا، ثم أسرعت في سيرها. لم يكن الكلب يسير بتلك السرعة، حتى اضطرت لجرّه وهي تسعل أثناء سيرها.

***

ساء حال شجيرات الصنوبر المتواجدة خلف المنطقة الخدمية، وتحولت إلى مستنقعات مليئة بالنباتات والحيوانات المتعفنة. تحولت الأرضية المفروشة بأوراق الصنوبر إلى منطقة لإلقاء المخلفات؛ فمن أغلفة شطائر البرجر، إلى عبوات المشروبات الغازية، إلى مناديل "تي سي بي واي"، إلى علب الجعة، إلى زجاجات تبريد الخمر، إلى أعقاب السجائر كذلك. رأى "ريتشارد" واقيًا ذكريًا مستخدمًا ملقيًا على الأرض وكأنه حلزون ميت بجوار سروالٍ ممزق مكتوب عليه كلمة "الثلاثاء" بخيوط يدوية أنثوية.

استغل فرصة تواجده في هذا المكان وقرر إلقاء نظرة أخرى على اللوحة، ولكن هذه المرة تجهّز لأي تغيير قد يطرأ عليها، حتى ولو كانت اللوحة متحركة فعلًا وكأنها فيلم سينمائي داخل إطار ... ولكن هذه المرة لم يكن هناك أي تغيير. اعتقد "ريتشارد" أنه لا حاجة لأي تغيير يطرأ على اللوحة، يكفي فقط وجه ذلك الرجل الأشقر،

وتلك الابتسامة المتحجرة المجنونة، وتلك الأنياب البارزة، وكأن وجهه يقول له:

– مرحى أيها العجوز! لقد اكتفيت من هذا العالم ... أنا هنا لأمثل الجيل الجديد (الجيل X) ... الألفية الجديدة صارت هنا خلف عجلة قيادة هذه السيارة الأنيقة القوية.

كان أول انطباع لـــ"العمة ترودي" على تلك اللوحة أن نصحته بإلقائها في "نهر ساكو". كانت محقة، فالنهر صار على بعد عشرين ميلًا خلفه، ولكن ...

– أجل، سأفعل ذلك ... سيكون ذلك حسن.

رفع اللوحة فوق رأسه كشاب يحمل كأس بطولة رياضية لالتقاط صورة له، ثم ألقى بها من فوق المنحدر. انقلبت اللوحة مرتين، ثم انفصل إطارها عنها، واصطدمت بشجرة. تهشم زجاج اللوحة، ثم سقطت الرسمة على الأرض، وانزلقت صوب منحدر جاف مليء بأوراق الصنوبر، وكأنها كانت تجري مع تيّار شلال منحدر. استقرت اللوحة في المستنقع، ثم بدأت تغوص ولم يتبق منها جزء بارز إلا ركن واحد من أركان الإطار ظل على السطح محاطًا بأعواد سميكة. لم يبق شيءٌ واضح إلا شظية من بقايا الزجاج المتهشم. ظن "ريتشارد" أن الأمر انتهى وصارت اللوحة بين النفايات.

عاد إلى سيارته وقد استعاد تركيزه من جديد. قرر أن يحاصر هذه الحادثة داخل عقله، وظن أنها وقعت له لأنها تقع أصلًا للناس الذين يهتمون بمثل هذه الأشياء كما هو حاله بالضبط. يكتب الكاذبون والوصوليون (أو المتطفلون في هذه الحالة) خيالاتهم في نشرات مثل "ناجون"، ويصدقونها لتصبح حقيقة بالنسبة لهم. هؤلاء الذين يتخبط تفكيرهم المنصب على ظاهرة غريبة يبقون أفواههم مغلقة ويوصدون باب التفكير فيها. عندما تظهر تلك التصدعات في حياتك، لابد أن تفعل شيئًا ما حيالها، وإن لم تقم بذلك، ستتسع تلك التصدعات وستبتلع كل ما حولها.

***

لمح "ريتشارد" تلك الشابة الجميلة وهي تراقبه من مسافة تظن أنها آمنة بالنسبة لها. عندما رأته ينظر إليها التفتت واتجهت صوب المطعم وهي تجر كلبها من نوع "كوكر سبانيل" خلفها ... سارت وهي تحافظ بقدر الإمكان على تمايل تضاريس جسمها يمينًا ويسارًا.

فكّر "ريتشارد" قليلًا وقال لنفسه:

– تظنين أني رجل مجنون، أليس كذلك أيتها الفتاة الجميلة؟

لاحظ أنه قد ترك صندوق سيارته مفتوحًا كفمٍ يتثاءب، فذهب وأغلقه بعنف.

- ولكني لست بمجنون، بالطبع لست بمجنون. كل ما حصل أني ارتكبت خطأً صغيرًا ... هذا كل ما في الأمر. توقفت لدى إحدى ساحات البيع بدلًا من إكمال طريقي بدون توقف. أي شخص قد يفعل ذلك، أنت أيضًا من الممكن أن تفعل ذلك. تلك الصورة ....

توقف عن الكلام وحاول الابتسام قليلًا وأتبع:

- أي صورة؟ أنا لا أرى أي صورة.

دخل سيارته "الأودي" وأشعل محركها، ولّما نظر إلى عداد وقودها وجده انخفض إلى ما دون النصف. صار في حاجة لملء خزان الوقود قبل أن يعود أدراجه، ولكن هذه المرة لن يملأه بأكثر من نصفه. كل ما يرده الآن هو أن يضع حدًا فاصلًا بينه وبين تلك اللوحة المنبوذة.

انطلق "ريتشارد" على "طريق كنساس" خارج حدود مدينة "ديري"، حتى قارب على محازاة المدينة ذاتها، مارًا بعد برهةٍ بين عمودين حجريين على مشارفها. صار الطريق الذي كان ممهدًا منذ قليل بالأسفلت مفروشًا بالحصى، وصار أحد أكثر طرق مدينة "ديري" ازدحامًا على بعد ثمانية أميالٍ شرقًا طريقًا سريعًا يؤدي إلى تلةٍ ضحلة. يضيء الطريق في ليالي الصيف القمرية وكأنه تمثيلٌ لكلمات "ألفريد نويز" في قصائده الرومانسية. على قمة التلة يقف بيت أنيق يأخذ وضع الزاوية على هيئة اسطبل ذو نوافذ عاكسة، ورغم هيئة الاسطبل التي هو عليها، إلا أنه في الأصل جراج مزود

بطبق قمر صناعي موجه صوب النجوم في السماء. أطلق أحد مراسلي "ديري الإخبارية" على المبنى مازحًا: البيت الذي بناه "جور" ... ولا يقصد هنا نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. أطلق "ريتشارد" على المكان اسم "البيت". ركن سيارته أمام البيت وهو يخامره إحساس بالرضا المضجر. أحسّ وكأنه ظلّ بدون نوم لمدة أسبوعٍ كامل منذ استيقاظه في التاسعة صباحًا في فندق "ميناء بوسطن".

فكّر قليلًا وحدّث نفسه قائلًا:

– لا مزيد من ساحات البيع ... لا مزيد على الإطلاق، آمين.

توجه صوب البيت دون أن يضع سيارته داخل الجراج، ولكن لن يفعلها أبدًا. كل ما يحتاجه الآن هو شراب ووجبة خفيفة (ويُستحسن لو كانت سريعة التسخين) وفراش ينام عليه. كان أحوج ما يكون إلى نسيان ما جرى ذلك اليوم.

وضع مفتاحه داخل قفل الباب، وأداره، ثم ضغط على الأرقام (3817) لإسكات الصوت الصادر عن جرس إنذار السرقة. دلف إلى البيت وأضاء مصباح الصالة الأمامية، ثم أغلق الباب خلفه. التف حوله ورأى على الحائط مجموعة أغلفة كتبه كما هي منذ يومين، ثم صرخ.

أجل، صرخ! ولكن داخل رأسه. لم يخرج صوتٌ من فمه، إلا زفيرٌ جاف. سمع صوت ارتطام وخشخشة مكتومة، حيث سقطت مفاتيحه من يديه المبسوطتين على السجادة أسفل منه.

لم تعد لوحة "لعنة على الطريق" في المستنق حيث رماها خلف المنطقة الخدمية.

الصورة معلقة على جدار صالة بيته!

تغيرت الصورة مجددًا؛ فالسيارة صارت الآن مركونة على طريق ساحة البيع. مازالت البضائع متناثرة هنا وهناك؛ أواني زجاجية، وقطع أثاث، وأعمال نحتية (كلاب "سكوبي" تدخن الغليون، وأطفال عراة، وأسماك تغمز بعينها)، ولكن هذه المرة تومض تحت ضوء نفس القمر المرسوم على هيئة جمجمة بشرية والذي أضاء السماء فوق بيت "ريتشارد". ظهر التلفاز على اللوحة هذه المرة وشاشته تعمل وينعكس وهجها الشاحب على العشب الذي يفترش الأرض كلها والمقعد المقلوب أمامه. كانت "جودي ديمينت" في الخلفية، ولم تعد موجودة. شاهد "ريتشارد" باقي تفاصيل اللوحة بعد دقيقة. ظهرت عيون ميتة لامعة وكأنها عملات معدنية تلمع تحت ضوء القمر، كل ذلك واللوحة مستقرة فوق طاولة كي الملابس.

ظهرت الإضاءة الخلفية للسيارة ماركة "جراند آم" هذه المرة بدرجة من درجات اللون الأحمر الباهت.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها "ريتشارد" صندوق السيارة الخلفي، مكتوب عليه بحروف إنجليزية قديمة ثلاث كلمات: "لعنة على الطريق".

قال "ريتشارد" والخدر يسري في جسده:

- صار الأمر واضحًا، فاللعنة ليست الرجل نفسه، بل سيارته ... إلا أن الأمر لا يختلف كثيرًا خصوصًا مع رجل بهذا المظهر.

همس لنفسه من جديد:

- هذا لا يمكن أن يحدث!

إلا أن الأمر كان يحدث بالفعل، ربما لم يكن ليحدث لرجلٍ لا يؤمن بهذه الأمور، ولكنه يحدث بالفعل. حملق في اللوحة من جديد، ثم تذكّر تلك العلامة الصغيرة على طاولة اللعب التي كانت لدى "جودي ديمينت"، والتي كانت مكتوب عليها "الدفع نقدًا" ... وبرغم ذلك فقد قبلت تلك المرأة شيكًا بنكيًا منه وسجّلت رقم رخصة قيادته على ظهر الشيك، ثم قالت حينها:

- البضاعة المباعة لا تُرد ولا تُستبدل.

أخذ "ريتشارد" اللوحة وتوجه صوب غرفة المعيشة، وهناك شعر بأنه غريب داخل جسده، شعر أيضًا وكأن جزء من عقله يبحث عن حل للأزمة التي وقع فيها ... يبدو وكأنه ضلّ طريقه.

أشعل التلفاز وطبق استقبال "توشيبا" أعلاه. انتقل إلى القناة "في-14"، ومازال يشعر بتلك اللوحة المعلقة على جدار صالة بيته وكأنها تضغط على رأسه من الخلف. شعر وكأن تلك اللوحة قد عضته في مكانٍ ما في رأسه.

قال "ريتشارد" ضاحكًا

- كان يجب أن آخذ طريقًا مختصرًا.

لم يعد قادرًا على رؤية المزيد من تفاصيل ذلك الرجل الأشقر في اللوحة، ولكن كان هناك غيمة خلف عجلة القيادة توقع "ريتشارد" أنها ذلك الرجل. انتهى عمل تلك اللعنة على طريق "روزوود"، وصار الوقت مناسبًا للانتقال شمالًا ... إلى المحطة التالية.

أوصد الباب على تلك الأفكار، قاطعًا كل الطرق المؤدية إليها، ثم خاطب غرفة المعيشة الشاغرة قائلًا:

- مازلت أتخيل تلك اللوحة رغم ذلك.

وبدلًا من أن يشعر بالطمأنينة بعض الشيء، وجد صوته الأجش المرتعش يخيفه أكثر من الأول.

- قد يكون هذا ...

لم يكمل حديثه، فقد باغتته كلمات أغنية قديمة من موسيقى تشبه "الهيب هوب" كان يؤديها "فرانك سيناترا" في الخمسينات، حيث تقول الكلمات "قد تكون هذه بداية شيء كبير".

لم يكن الصوت الصادر من سماعات تلفازه صوت "فرانك سيناترا"، بل صوت "بول سيمون" المصحوب بعزف على آلة وترية. ظهرت على شاشة الحاسوب الأبيض شاشة زرقاء تقول: "مرحبًا بك في وكالة أنباء نيوإنجلاند"، وأسفلها بعض الإرشادات. لم يشعر "ريتشارد" بحاجة لقراءتها، فقد كان أحد المهووسين بوكالة الأنباء تلك، ويعرف كيف يتصل بها عن ظهر قلب. اتصل بها، وأدخل بطاقة "ماستركارد" ، ثم أدخل الرقم "508". فسمع صوتًا هاتفيًا يقول:

- مرحبًا بك! أنت الآن على خدمة "وكالة الأنباء" لنقل أخبار "وسط وشمال ماساتشوستس"

- شكرًا جزي.....

وضع "ريتشارد" السماعة مكانها، ثم نظر إلى شعار وكالة الأنباء وهو يعض أصابعه بعصبية، ثم قال:

- هيا! هيا! هيا!

اضطربت الشاشة ثم تحول لونها من الأزرق إلى الأخضر. بدأت بعض الكلمات تظهر على الشاشة تصف حريقًا بأحد المنازل في

"تونتون". تبع هذا الخبر خبر آخر عن فضيحة في إحدى سباقات الكلاب، ثم جاءت النشرة الجوية؛ طقس الغد صافٍ لطيف. بدأ "ريتشارد" يهدأ، ثم أخذ يفكر ما ذا كان ما رآه على جدار صالة بيته حقيقي أم أن ذلك مجرد هلوسة من جراء سفره المرهق. أصدر التلفاز صافرة شديدة، ثم ظهر ت على الشاشة عبارة "أخبار عاجلة". وقف يشاهد الخبر العاجل:

مقتل امرأة في مدينة "روزوود" أثناء إسدائها جميلًا لصديقها الغائب. قُتلت "جوديث ديمينت" البالغة من العمر ثمانية وثلاثين عامًا بقسوة بعد أن تم ضربها حتى الموت في فناء بيت صديقها، حيث كانت تقيم ساحة للبيع. لم يسمع الأهالي صراخ القتيلة، ولم يلحظ أحد جثتها إلا في الثامنة أثناء عبور أحد الجيران الشارع وجاء ليشكو من صوت التلفاز المرتفع. قال الجار المدعو "ماثيو جرافز" أنه وجد القتيلة مقطوعة الرأس، وقال أيضًا: "وجدت رأسها على طاولة كي الملابس ... كان ذلك أبشع شيء رأيته بحياتي". قال "جرافز" أنه لم يسمع صوت شجار أبدًا، فلم يكن هناك إلا صوت التلفاز. يقول أيضًا أنه قبل العثور على الجثة بقليل رأى سيارة ذات محرك عالِ الصوت أصدرت ضجيجًا وأسرعت بجواره عبر "الطريق 1". هناك توقعات بأن تلك السيارة كانت للقاتل.

إلا أن ذلك لم يكن توقعًا، بل حقيقة عارية.

تنفّس "ريتشارد" بصعوبة، ثم أسرع صوب صالة بيته، ووجد اللوحة معلقة على جدارها ... ولكن تغيرت من جديد. ترسم اللوحة الآن دائرتين ساطعتين – ضوئين – وخيال مظلم لسيارة تلحق بهما.

قال لنفسه:

– إنه يتحرك الآن!

ارتسمت صورة "العمة ترودي" في مخيلته على الفور.. "العمة ترودي" الجميلة التي تعرف من الشرير ومن الطيب.. "العمة ترودي" التي تقطن في "ويلز" على بعد أربعين ميلًا على الأكثر من "روزوود"،

اقترب من اللوحة وقال:

– يا رباه! أرجوك يا رباه أن ترسله بعيدًا إلى الطريق الساحلي.

هل بعدت الدائرتان الساطعتان عن بعضهما أم أن تلك مجرد تخيلات؟ صار المشهد وكأن السيارة تتحرك أمام عينيه ... ولكن هل كانت تتحرك حقًا ببطء كما يتحرك عقرب الدقائق في ساعة الجيب؟

– يا رباه! أرجوك يا رباه أن ترسله بعيدًا إلى الطريق الساحلي.

مزّق اللوحة من على حائطه وركض بها إلى غرفة معيشته. كانت شاشة التلفاز بجوار المدفأة ... لم يكن قد أوقد المدفأة منذ زمن، فلم يكن في حاجة لها إلا بعد مرور شهرين على الأقل من الآن. ضرب "ريتشارد" اللوحة على الأرض، ثم كسر اللوح الزجاجي الذي

كسره من قبل في المنطقة الخدمية. توجه إلى المطبخ متخيلًا ما قد يحدث إن لم ينفع الأمر هذه المرة.

– يجب أن ينفع الأمر هذه المرة ... سينفع هذه المرة بالذات لأنه من الضروري أن ينفع ... هذا هو الحل.

فتح خزانات مطبخه وأخذ ينبش فيها. رمى دقيق الشوفان جانبًا، ثم عبوة الملح، ثم زجاجة الخلّ. انكسرت الزجاجة على المنضدة وأصدرت رائحة نفّاذة كتمت أنفاسه وأعمت عينيه.

لم يكن هناك ما كان يبحث عنه.

ركض صوب حجرة المؤن ونظر خلف الباب. لم يجد إلا عبوة بلاستيكية ومسّاحة أرضية، ثم توجه إلى الرف المجاور لمجففة الأطباق، وهناك وجد ضالته.

بجوار الولّاعات كان هناك سائل يساعد على الاشتعال.

أخذ السائل وركض إلى غرفة المعيشة ... صادف في طريقته هاتف المطبخ معلقًا على الحائط، فداهمته الرغبة في الاتصال بـــ"العمة ترودي". لم يكن خائفًا من عدم تصديق عمته له، خصوصًا وأنه ابن أخيها المفضل، وإذا طلب منها الخروج من البيت الآن ستخرج ... ولكن ماذا إذا تتبعها ذلك الرجل الأشقر؟ ماذا إن طاردها؟

سيفعل! يعرف جيدًا أنه سيفعل.

ركض عبر غرفة المعيشة ثم توقف عند المدفأة وهمس:

– يا رباه! لا يا رباه!

اختفت الأضواء من اللوحة المستقرة أسفل شظايا الزجاج المتناثرة. والآن تظهر سيارة "جراند آم" على طريق منحني بشدة وكأنه نهاية منحدر. انعكس ضوء القمر وكأنه نسيج حريري ينساب على جانبي السيارة الداكنين. في الخلف كان هناك برج خزّان ماء عليه كلمات واضحة سهلة القراءة بفضل ضوء القمر الساطع ... تقول الكلمات: " حافظوا على نظافة ماين.. اجلبوا لها بعض المال".

لم يوجّه "ريتشارد" السائل على اللوحة جيدًا في المرة الأولى، يداه كانت ترتعشان بشدة، وتساقط السائل الفوّاح من العبوة على جزءٍ غير مكسور من الزجاج، حتى صار الجزء الخلفي من السيارة الملعونة غائمًا. أخذ نفسًا عميقًا، ثم صوّب جيدًا وضغط على العبوة لإنزال السائل. تدفّق السائل هذه المرة عبر ثقب في جسم لوحة معدنية وُضعت تحتها اللوحة داخل المدفأة، ثم تساقط السائل علىى اللوحة نفسها عبر ذلك الثقب نقطة تلو الأخرى، وكأنها دموع تتساقط عليها.

أحضر عود ثقاب مع برطمان على رف المستوقد، ثم أشعل النار ووضع عود الثقاب خلال الثقب، ثم احترقت اللوحة على الفور. شاهد النار وهي تلتهم سيارة "الجراند آم" وبرج خزان الماء، ثم

تفحمت قطع الزجاج التي كانت تغطي اللوحة، ثم تحطمت بفعل الحرارة إلى شظايا صغيرة. فتّت شظايا الزجاج الصغيرة تلك بحذائه قبل أن تنتقل النار إلى السجاد.

توجه صوب الهاتف وطلب رقم عمته، لم يكن يعلم حينها أنه يبكي. ومع الرنين الثالث سمع صوت جهاز الرد الآلي يقول:

– مرحبًا! أن "العمة ترودي" ... لقد ذهبت إلى "كينيبنك" لمشاهدة فيلم "هاريسون فورد" الجديد، رغم أن هذا قد يشجع اللصوص على سرقة البيت. إذا كنت تنتوي سرقة البيت، لا تأخذ خنازيري الصينية. إذا أردت ترك رسالة، تحدث بعد سماع الصافرة.

انتظر "ريتشارد" محافظًا على صوته على أكبر قدر من الثبات، ثم قال:

– عمتي! أنا "ريتشارد"، اتصلي بي عندما تعودين، حتى لو كان الوقت متأخر جدًا.

وضع السمّاعة ونظر إلى التلفاز، ثم اتصل بوكالة الأنباء من جديد، ولكن هذه المرة وضع رمز منطقة "ماين"، وبينما كان يتم تجهيز طلبه على الناحية الأخرى من الخط، رجع إلى الخلف واستخدم قضيب من الحديد لوخز ذلك الشيء المتفحم الملتوي في قلب المدفأة. رائحة الحريق كنت بشعة، لدرجة جعلت رائحة الخل المصبوب أشبه برائحة الزهور مقارنةً بها، ولكن لم يهتم "ريتشارد" بالأمر كثيرًا.

كانت اللوحة قد احترقت تمامًا، ثم تحولت إلى رماد ... هذا ما كان يشغل باله حينها.

– ولكن ماذا إن عادت اللوحة مجددًا؟

وضع قضيب الحديد مكانه وعاد لمشاهدة التلفاز مجددًا وقال:

– لن تعود ... أنا متأكد أنها لن تعود مجددًا.

ولكن كلما عاود شريط الأخبار الظهور على الشاشة حملق فيها.

تحوّلت اللوحة إلى رماد، ولم يظهر خبر مقتل امرأة عجوز في منطقة "ويلز–ساكو–كينيبنك". دأب "ريتشارد" على مطالعة التلفاز، وكأنه يتوقع مشاهدة خبر يقول: "حادث سيارة "جراند آم" على الطريق المؤدي إلى سينما "كينيبنك" أسفر عن مقتل عشرة"، ولكن لم يظهر خبرٌ كهذا.

ومع حلول الساعة الحادية عشر والثلث، رنّ الهاتف، فالتقطه "ريتشارد" بسرعة وقال:

– مرحبًا!

– أنا "العمة ترودي" يا عزيزي، هل أنت بخير؟

– أجل، بخير.

– لا تبدو بخير ... صوتك يبدو مضطربًا و... غريبًا! ما الذي يجري؟ ماذا بك؟

ثم داهمته بسؤال اقشعر له بدنه، لكن لم يفاجئه:

– الأمر متعلق بتلك اللوحة التي كنت سعيدًا بها، أليس كذلك؟ تلك الصورة الملعونة!

هدأ بعض الشيء، ربما لأن عمته تفكر في نفس الشيء ... وبالطبع لأنه اطمأن على أنها بخير.

– حسنًا! ربما ... كانت لدي بعض الوساوس طوال طريق عودتي، ولذا قمت بإحراق تلك اللوحة في مدفأتي.

جاءه صوتٌ من داخله يقول له:

– لابد أنها ستعلم بأمر "جودي ديمينت". صحيح أنها لا تمتلك قمرًا صناعيًا مثلك، ولكنها مشتركة في جريدة "يونيون ليدر"، وخبر مثل هذا سيكون على الصفحة الأولى، ثم ستبدأ في التخمين، فهي ليست بغبية على الإطلاق.

أجل، هذه حقيقة لا ريب فيها، ولكن تفسيرها قد ينتظر حتى الصباح ... ربما يصبح حينها أكثر اطمئنانًا، وأكثر قدرة على التفكير في تلك اللوحة الملعونة من دون أن يفقد عقله، وأكثر تقبلًا لفكرة أن اللوحة صارت رمادًا.

قالت بصوتٍ حانٍ:

– حسنًا فعلت! عليك أن تبعثر ذلك الرماد كذلك.

توقف كلامها قليلًا، ثم عاودت هذه المرة بالهمس:

– كنت قلقًا عليّ، أليس كذلك؟ لأني رأيتها.

– أجل، كنت قلقًا بعض الشيء.

– وهل تشعر بالارتياح الآن؟

انحنى إلى الخلف وأغلق عينيه ... كان شعورًا حقيقيًا.

– أجل، ارتحت الآن فقط ... ولكن كيف كان الفيلم؟

– جيد! "هاريسون فورد" ارتدى زيًا أنيقًا، لو أنه يتخلص فقط من ذلك النتوء في ذقنه ...

– نومًا هنيئًا، عمتي ... سنتحدث بالغد.

– فعلًا؟

– أجل، أعتقد ذلك.

وضع السماعة، ثم توجه إلى المدفأة من جديد، ثم أخذ يقلّب الرمادِ بالقضيب الحديدي. لم يتبقَ من اللوحة إلّا قطعة صغيرة مرسوم عليها رفارف السيارة وقطعة أخرى ممزقة عليها جزء من الطريق ... هذا كل ما تبقى. كان لابد من حرق اللوحة من البداية. أوليس

هكذا تُقتل الكائنات الخرافية الشريرة؟ بالطبع، فقد استخدم نفس الطريقة في كتابه بعنوان "المغادر" الذي يروي قصة قطارٍ ملعون.

– أجل! احترقي، حبيبتي، احترقي.

تذكّر الشراب الذي وعد نفسه به، ثم تذكّر زجاجة الخل (والتي من المحتمل أن تنسكب على دقيق الشوفان)، فقرر أن يصعد إلى الأعلى بدلًا من ذلك. كان "ريتشارد" يفترض دومًا في كتبه أن النوم يستعصي على من يمر بتجربة مثل تلك. ولكنه ظنَ في الواقع أن بعض النوم سيكون جيدًا له.

غفا "ريتشارد" بالفعل وهو يأخذ حمامه. استند على الجدار الخلفي وشعره مليء بالشامبو والمياه تنصب على صدره. تخيّل "ريتشارد" نفسه وهو في ساحة البيع مجددًا، والتلفاز مازال مستندًا على أربع طفايات سجائر، و"جودي ديمينت" تظهر على شاشته. رأسها سليم غير منفصل عن جسمها، رغم أن "ريتشاد" لاحظ بعض الخيوط البدائية التي وضعها طبيب الإسعافات الأولية على رقبتها لربط رأسها بجسمها. تغطي الخيوط رقبتها بالكامل وكأنها قلادة مخيفة. قالت "جودي ديمينت":

– الآن موعدك مع آخر أنباء وكالة "نيوإنجلاند".

تخيّل "ريتشارد" المعروف بخياله الواسع تلك الخيوط في رقبتها أمام عينيه، ثم شعر براحة وهي تتحدث.

- لقد أخذ "بوبي هاستينجس" كل لوحاته وأحرقها، بما فيهم لوحتك، سيد "ريتشارد"، وهي خاصتك فعلًا على حد علمي. البضائع المُباعة لا تُرد ولا تُستبدل ... لقد رأيت تلك الإشارة. واجب عليك أن تفرح لأني قبلت منك الشيك أصلًا.

تحدث "ريتشارد" من داخله أثناء حلمه وقال لنفسه:

- أحرق كل لوحاته ... أجل، بالفعل قام بذلك. لم يعد يتحمل ما يحدث له، هكذا قال في ملاحظته التي تركها قبل انتحاره. عندما يصل المرء إلى هذه الدرجة، لن يفكّر طويلًا فيما إذا كان يريد أن يستثني تلك اللوحة الملعونة من المحرقة التي صنعها لجميع أعماله. لابد وأنك كنت تشعر أن شيئًا ما يميز تلك اللوحة، أليس كذلك يا "بوبي"؟ وربما كان كل هذا من قبيل الصدفة. صحيح أنك كنت موهوبًا، ولكن ليس للموهبة دخلٌ بما يحدث فعليًا مع تلك اللوحة.

قالت "جودي ديمينت" على شاشة التلفاز:

- هناك أمور لا تموت ... تعود من جديد مهما حاولت جاهدًا التخلص منها ... تعاود الظهور مجددًا وكأنها لعنة.

اقترب "ريتشارد" من التلفاز وغيّر القناة، ولكن اتضح أن التلفاز لا يعرض إلا "برنامج جودي ديمينت".

قالت:

– ربما تظن أن "بوبي هاستينجس" قد صنع ثقبًا في هذا العالم تخرج منه تلك اللوحة. أليس ذلك بجميل؟

انزلقت قدما "ريتشارد" حينها. صحيح أنه لم يسقط على الأرض، إلا أن هذا كان كافيًا لإيقاظه.

فتح عينيه وجفل لمنظر الصابون وهو يغطي وجهه (كان شامبو "بريل" قد تساقط من رأسه على وجهه وكأنه نهر أبيض سميك أثناء غفوته). وضع كف يده على وجهه لإزالة سائل الاستحمام، ثم سمع صوتًا! صوتٌ هادر خشن ...

قال لنفسه:

– لا تكن غبيًا! هذا صوت خرير المياه، والباقي تخيلات ... مجرد تخيلات غبية من عقلك المرهق.

إلا أن الصوت لم يكن مجرد تخيلات.

خرج "ريتشارد" وأغلق صنبور المياه، إلا أن الصوت مازال مسموعًا ... صوت منخفض، لكن قوي، يأتي من الخارج.

خرج من دورة المياه، ثم سار والمياه تتساقط من جسمه. عبر خلال غرفه نومه في الطابق الثاني. مازالت هناك بعض قطرات الشامبو على شعره جعلته يبدو أبيض الشعر كما كان في حلمه القصير ... وكأن "جودي ديمينت" جعلت شعره أبيضًا.

سأل نفسه:

– لماذا توقفت لدى ساحة البيع تلك؟

لم يجد إجابة لسؤاله ... ولن يجد أي أحد إجابه له.

ارتفع صوت الخشخشة أكثر عندما اقترب من النافذة المطلّة على الطريق المضيء في ليالي الصيف القمرية وكأنه تمثيلٌ لكلمات "ألفريد نويز" في قصائده الرومانسية.

أزاح "ريتشارد" الستائر جانبًا ونظر إلى الخارج، وجد نفسه يفكر في زوجته السابقة "سالي" التي قابلها أول مرة في "مؤتمر الفانتازيا العالمي" عام 1978. كانت "سال" قد نشرت حتى الآن نشرتين من مقطورة السكة الحديدية المزدوجة خاصتها؛ النشرة الأولى بعنوان "ناجون"، والنشرة الثانية بعنوان "زائرون". نظر "ريتشارد" صوب الطريق وارتسم العنوانان في مخيلته كصورة مزدوجة مرسومة على شاشة عرض.

تخيل لو جاءه زائر ناجٍ من الموت.

أوقف سيارته "الجراند آم" أمام البيت. ذلك الضباب الأبيض الصادر عن أنبوب عادم السيارة المزدوج يتصاعد في هواء الليل الراكد. كانت الحروف الإنجليزية القديمة المكتوبة على ظهر السيارة واضحة جدًا. ظل باب السيارة الجانبي مفتوحًا؛ ليس هذا فقط،

فالضوء الساقط على عتبات الشرفة يشير إلى أن باب بيت "ريتشارد" الأمامي كان مفتوحًا أيضًا.

– نسيت أن أغلق الباب!

هكذا فكّر وهو يمسح الصابون من على جبهته بيده التي لم يعد يشعر بها.

– نسيت أن أعيد ضبط إنذار السرقة كذلك! ليس وكأنني لو أعدت ضبطه سيصعب هذا من مهمة ذلك الرجل.

حسنًا، ربما انعطف الرجل عن طريقه إلى "العمة ترودي" ... ولكنه الآن جاء ليسبب مشكلة له.

ناجون!

ذلك الصوت الهادر الناعم الصدار عن المحرك الكبير لسيارة ماركة (أولدزموبيب 442) مزودة بكاربيراتير رباعي. العزم، وصمامات دفع، وحقن وقود.

عاد "ريتشارد" عاريًا تمامًا إلى غرفته على قدمين بطيئتين لم يعد يشعر بهما، وفور دخوله الغرفة وجد اللوحة تعتلي فراشه كما ظنّ تمامًا. هذه المرة وقفت سيارة "الجراند آم" في فناء بيته، باب السائق مفتوح وعمودان من العادم يتصاعدان من أنبوب عادمها. لاحظ باب

بيته من هذه الزاوية، مازال مفتوحًا وظل رجل طويل يمتد داخل الصالة.

ناجون!

ناجون وزائرون!

صار يسمع الآن صوت أقدامٍ تصعد على درجات السُلّم. خطوات ثقيلة تأكد منها "ريتشارد" من دون حاجة لرؤية صاحبها أنه كان يرتدي حذاء دراجة نارية. هؤلاء الناس الذين يرسموم على أذرعهم وشم (الموت ولا العار) دائمًا ما يرتدون أحذية دراجات نارية، كما يدخون سجائر "الجمل" غير المفلترة، وكأن تلك الأمور كانت دستورًا بالنسبة لهم.

السكّين ... ربما يحمل سكينًا طويلًا حادًا أشبه بخنجر ... سكين قد تقطع رأس أحدهم بضربة واحدة.

سيكون مبتسمًا كذلك، وستظهر أسنانه تلك التي تشبه أنياب آكلي لحوم البشر.

عرف "ريتشارد" هذه الأمور، فكان ذا خيالٍ خصب في كل الأحوال. لم يحتج شخص يرسم له تلك الصورة.

– لا!

همس فور أن تذكّر أنه عارٍ تمامًا، ثم شعر ببشرته كلها وهي تتجمد.

- لا! أرجوك اذهب.

ولكن ظلت خطوات الأقدام تصعد درجات السُلّم. لن يقدر على إقناع رجلٍ كهذا بالرحيل ... لن يجدي ذلك، فتلك ليست النهاية المناسبة للقصة.

سمع "ريتشارد" خطواته تقترب من أعلى درجات السُلّم، وفي الخارج ظلت سيارته "الجراند آم" تصدر أزيزًا تحت ضوء القمر.

صار الرجل في صالة البيت الآن ... يرتدي في حذاءً بكعب يطرق به على أرضية بيته الخشبية اللامعة.

أحسّ "ريتشارد" بشللٍ فظيع قاومه بالكاد وانطلق صوب باب غرفة النوم ليغلقه قبل أن يصل ذلك الشيء إلى هنا، ولكنه تزحلق على بقعةٍ من الصابون، ثم سقط على الأرض فعليًا هذه المرة. افترش ظهره أرضيته المصنوعة من خشب البلّوط، وفور أن انفتح باب الغرفة وعبر الرجل الغرفة متوجهًا إليه وهو ملقى على الأرض عاريًا بشعرٍ مليئ بشامبو "بريل"، شاهد السيارة الملعونة واقفة أمام بيته وباب السائق مفتوح.

مقعد السائق كان مغطى تمامًا بالدماء ...

– أعتقد أني سأخرج الأن.

ثم أغلق عينيه.

رجل الإشارة

تشارلز ديكنز



- هاااااااااااااااي ... بالأسفل هنااااااك!

كان واقفًا عند باب كشكه ممسكًا براية ملفوفة حول صاري قصير، وسمع صوتًا ينادي عليه. يصعب على أي أحد أن يخمّن من أين يأتي الصوت، وخصوصًا في هذا المكان، ولكن بدلًا من أن أنظر إلى الأعلى وجدتّ نفسي أقف على مكانٍ مرتفع أتحرك بالقرب من رأسه. نظر يمينًا ويسارًا، ثم نظر إلى اتجاه خط السكة الحديدية. بدت حركاته غريبة، لدرجة جعلتني لا أفهم لم يتحرك هكذا. كل ما أعلمه أن حركاته جذبت انتباهي إليه، على الرغم من هيئته القصيرة الضبابية داخل الخندق. كنت أعلى منه بكثير على منحدرٍ مواجه لقرص الشمس الساطع رغم الغروب، لدرجة جعلتني أضع يدي على عينيّ حتى تتسنى ليه الرؤية في الظل، هذا قبل أن أراه أصلًا.

- هاااااااااااااااي ... بالأسفل هنااااااك!

ذهب ناحية اتجاه السكة الحديدية، ونظرًا يمينًا ويسارًا مرة أخرى، ثم نظر إلى الأعلى فرآني.

– أثمة وسيلة أستطيع التزول بها لأحدّثك؟

نظر إليّ بالأعلى دون رد، ونظرت إليه بالأسفل دون أن أضغط عليه للحصول على إجابة لسؤالي التافه. حينها أحسست بهزةٍ غريبة في الأرض والهواء، لم تلبث أن تحولت الهزة إلى خفقة عنيفة واندفاعٍ قوي أجبرني على العودة إلى الوراء ثم جذبني إلى الأسفل. عندما ارتفع الدخّان المتصاعد من ذلك القطار السريع الذي مرّ أمامي وانتشر في الأرجاء كلها نظرت إلى الأسفل مجددًا ووجدته يلوّح بالراية بينما كان القطار يمرّ بجواره.

سألته مجددًا، وبعد وهلةٍ من الصمت بدا فيها مهتمًا بي وجدته يتحرك ناحيتي وفي يده رايته الملفوفة، وعلى مسافة ياردة أو ياردتين قلت له:

– حسنًا!

توقف مكانه ونظر إليّ متفحصًا. وجدت طريقًا متعرجًا إلى الأسفل، فسرت فيه.

كان الطريق عميقًا للغاية، ومندفعًا بشكلٍ غريب بين أحجارٍ رطبة تصبح أكثر رطوبة وبللًا كلما هبطت إلى الأسفل. وجدت نفسي

أفكّر في الاعتذار والامتناع عن الهبوط أثناء نزولي على ذلك الطريق المتعرج، ولكن الرجل أشار إلى الطريق، وكأنه ينصحني باتخاذه.

وجدته مجددًا أثناء نزولي على الطريق المتعرج يقف بين خطيّ سكة حديدية مرّ عليهما القطار منذ قليل، بدا وكأنه ينتظر ظهوري. كان يضع يده اليسرى على ذقنه، وكوعه الأيسر يستند على كف يده اليمنى على صدره. مظهره كان يوحي وكأنه يتوقع شيئًا ينتظر قدومه.

استكملت طريقي إلى الأسفل، وفور هبوطي على قضيب السكة الحديدية بالقرب منه وجدته رجلًا شاحبًا داكن البشرة، تغطي ذقنه لحية داكنة، ويعلو عينيه حاجبان سميكان. بدت هيئته كئيبة بائسة لم أرَ مثلها قط.

على كلا الجانبين وقف جداران من الحجارة الخشنة المبتلة، يمنعان الرؤية إلا من خطٍ رفيع من السماء، يتميزان بطولٍ كبير وانحناءٍ شديد وكأنهما يحيطان بزنزانة ضخمة، وعلى الناحية الأخرى ضوء أحمر غائم ناحية مدخلٍ غائمٍ أكثر يؤدي إلى نفقٍ مظلم يمتلئ بفضل تصميمه الضخم بهواء بشع كئيب بغيض. تسرب خطٌ ضعيف من نور الشمس إلى هذا المكان المعبأ برائحةٍ كريهة مميتة، ورياح باردة جدًا اقشعر جسمي لها وأدخلتني في عالم من الخيال.

وقبل أن يتحرك وجدت نفسي واقفًا بالقرب منه لدرجة تسمح لي بلمسه. حينها لم تتحرك عيناه من عليّ، ثم تراجع خطوة إلى الوراء ورفع يده.

تصرفه هذا أوقع في نفسي الوحشة (هكذا قلت لنفسي) جعلني أنتبه أكثر لما حولي على عكس ما كنت عليه بالأعلى. أعتقد أن مرور شخص في هذا المكان أمر نادر الحدوث، ولكن أيُعقل أن مرور شخص هنا يُعد زيارة غير محمودة؟ لابد وأنه رأى فيّ رجلًا لا يتحدث كثيرًا إلا في أضيق الحدود، رجل حصل على حريته أخيرًا ومازال يتحسس طريقه في هذه الحياة. لهذا السبب تحدثت إليه، ولكني لست متأكد تمامًا من الكلمات التي قلتها له، وحينها لم أكن مرتاحًا لفتح أي حوارٍ معه، فذلك الرجل كان به أمرٌ ما أثار القلق في نفسي.

كانت عيناه تتابعان بحرص ذلك الضوء الأحمر بالقرب من مدخل النفق، تتفحصاه وكأن شيئًا قد ضاع منه، ثم التفت ناظرًا إليّ.

– هذا الضوء مهم لك أليس كذلك؟

ثم أجابني بصوتٍ منخفض:

– ألا تعرف هذا؟

داهمت عقلي أفكار شريرة، فتلك العيون المتحجرة وذلك الوجه الكئيب يوحيان إليّ بأنه روح، لا إنسان. توقعت ذلك، ما لم يكن الرجل مصابًا بمرضٍ في رأسه.

رجعت خطوة إلى الوراء، ولكن لاحظت خوفًا كامنًا في عينيه مني، جعل أفكاري الشريرة تتلاشى تمامًا.

– إنك تنظر إليّ وكأنما زرتك في الحلم.

رسمت ابتسامة متعمدة على شفتيّ وأنا أحدّثه، ثم قال:

– شعرت أني رأيتك من قبل.

– أين؟

أشار الرجل إلى الضوء الأحمر الذي كان ينظر إليه.

– هناك؟

نظر إليّ بعينين متفحصتين، ثم قال بصوتٍ يكاد لا يُسمع:

– أجل.

– وماذا قد أفعل هنا يا رفيق؟ ورغم ذلك، أقسم لك أني لم آتِ هنا من قبل.

عاود وقال:

– أشعر أني متأكد ... أجل، أنا متأكد.

بدأ يتضح أسلوبه في الكلام أخيرًا كما أنا ظاهر أمامه تمامًا. يردّ على أسئلتي بسرعة، وبكلماتٍ مُختارة بعناية. هل الرجل قادر على هذا؟ أجل، فالرجل لديه مسؤولية كبيرة يتحملها وفق ظروف عمله.

ولكن، كل المطلوب من رجلٍ كهذا أن يبقى منتبهًا وفطنًا لأداء واجبات عمله، ولا شيء أكثر من ذلك. عليه أن يغير الإشارة، ويبدّل الأضواء، وينقل هذه اليد الحديدية إلى الناحية الأخرى، هذا كل ما تمليه عليه وظيفته. قد تفرض عليه ساعات العمل الطويلة التي يقضيها وحده أسلوب الحياة هذا، ويبدو أنه قد اعتاد على ذلك منذ صغره. ومن المؤكد أنه قد تعلم لغةً ما هنا، لغة تُفهم بالعيون فقط، حتى أنه قد يضع قواعد خاصة لنطقها وتعلمها بنفسه. أعتقد أنه مرّ على الكسور العادية والكسور العشرية، وحلّ بعض المسائل الجبرية، ولكن كان ذلك بالماضي، حينما كان طفلًا ضعيفًا في حساب الأرقام. هل يفرض عليه عمله أن يبقى طوال الوقت في هذا النفق المختنق بالهواء الرطب؟ هل يحرم عليه أن يقف تحت أشعة الشمس بين هذين الجدارين الحجريين؟ ولماذا؟ أظن أن لذلك صلة أساسية بمدة عمله وظروفها. ربما تقل ساعات عمله على خط السكة الحديدية في بعض الأحيان، وربما يعمل ساعات محددة ليلًا ونهارًا. يختار العمل في هذا المكان الظليل في الأيام المشمسة، ولكنه يبقى خاضعًا لأي استدعاء يأتيه عبر جرسه الكهربائي، يهرع حينها نحوه الجرس ويجيب بقلقٍ شديد. لم يكن مرتاحًا بالقدر الذي ظننته.

أخذني صوب كشكه، حيث المدفأة ومكتب عليه سجّل رسمي يدوّن فيه بعض البيانات، وجهاز تلغراف مزود بأرقام وغطاء وإبرّ لطلب الرقم وجرس صغير يتحدث من خلاله. كنت أثق في أنه

سيتجاوز عن ملاحظتي بشأن تعليمه، وكنت أتمنى لو قلت حينها ولو من باب الذوق أنه كان متعلمًا أكثر مما يبدو عليه. بدا عليه حينها أنه فهم أن هناك تعارضًا بين مستواه التعليمية والمهنة التي يمتهنها، فرجل مثل قد يعمل في الإصلاحية، أو الشرطة، أو الجيش، أو على الأقل في محطة قطار كبير. يمكنني القول (أو التصديق، لمجرد تواجده في هذا الكشك، على الرغم من صعوبة الطرح نفسه) بأنه كان طالبًا يدرس الفلسفة الطبيعية، يواظب على حضور المحاضرات، ولكن ضلّ طريقه، وأضاع فرصة التعليم، وتدهور حاله، ولم يستفق منذ ذلك الحين. لم يكن لديه ما يشكو منه، فلديه فراش مهندم يستلقي عليه كل ليلة.

كل ما جال ببالي قاله بهدوء وعقله مشتتٌ بيني وبين مدفأته. كان يخاطبني بكلمة "سيدي" من حينٍ لآخر، وخصوصًا حينما كان يتحدث عن شبابه، وكأنه يطلب مني أن أفهم لَمَ اختار هذه الحياة. قاطعه الجرس مرات عديدة وهو يحدثني، وزسائل أخرى كانت تأتيه يجب عليه أن يقرأها، وردودًا يرسلها. وقف في مرة لدى باب الكشك ولوّح برايته لقطارٍ يمر، ثم قال شيئًا ما لسائق القطار. بدا عليه الدقة والحذر في عمله، حيث كان يوقف الحديث معي عند نقطةٍ ما، يؤدي عمله، ثم يعاود الحديث من حيث توقف.

باختصار، من الممكن أن أقول أن هذا الرجل أحد أكثر الناس الموثوق فيهم لأداء هذه الوظيفة، ولكن ربما أثناء حديثنا ضغط على لون خاطئ في لوحة الكشك، والتفت ناحية الجرس بينما لم يكن يرن

حينها، وفتح باب الكشك على الرغم من ضرورة إبقائه مغلقًا لمنع أي هواء ضار من الدخول إلى الكشك، ونظر ناحية ذلك الضوء الأحمر بالقرب من مدخل النفق. وفي كل مرة كان يعود مجددًا إلى المدفأة ولكن ما لاحظته هو موجة هوائية غير مفهومة تحيط به وتفصل بيني وبينه.

وقفت لإخباره برحيلي وقلت:

– تكاد تقنعني بأني قابلت رجلًا قنوعًا.

(عليّ أن أعترف بأني قلت له ذلك لإغرائه للتحدث أكثر).

قال بصوتٍ منخفض مثل أول مرة:

– أعتقد أني اعتدت على ذلك ... ولكني قلق، سيدي، أنا قلق!

أعاد الكلمة مرة أخرى، ولكني رددت عليه بسرعة:

– مم؟ ما الذي يقلقك؟

– من الصعب أن أقول لك، سيدي. صعب جدًا عليّ أن أقول لك. لو زرتني مجددًا سأحاول أن أحكي لك.

– سآتيك مجددًا في زيارةٍ أخرى بالتأكيد، ولكن متى؟

– ينتهي عملي في الصباح الباكر، ثم أعود مجددًا في العاشرة مساءً، سيدي.

- سآتيك في الحادية عشرة.

شكرني وسار معي حتى باب الكشك، ثم قال بصوته المنخفض المريب:

- سأضيء لك الطريق بمصباحي الأبيض، سيدي، حتى تصل إلى الطريق. ولكن عندما تجد الطريق لا تنادي، ولا تنادي أيضًا وأنت بالأعلى.

أسلوبه في الكلام جعلني أشعر بالبرد أكثر، ولكن لم أطل الحديث معه.

- حسنًا جدًا!

- وعندما تأتي مساءً لا تنادي ... دعني أسألك، لَمَ قلت " هاااااااااااااي ... بالسفل هنااااااك!" الليلة؟

- الله أعلم! أظنني لم ألم شيئًا من هذا القبيل.

- ليس من هذا القبيل، سيدي، تلك كانت الكلمات بالحرف ... أنا أعرف ما قلت.

- آها، فعلًا هكذا قلت بالفعل ... ذلك لأنك كنت بالأسفل.

- ليس لديك سبب آخر؟

- أي سبب قد يكون لدي؟

- ألم تشعر أن عبارتك توحي بشيء خارق للطبيعة؟

- لا..

تمنى لي ليلة سعيدة وأضاء مصباحه. سرت بمحاذاة قضيب السكة الحديدية (مع إحساس مخيف بقدوم قطار من خلفي) حتى وجدت الطريق. الطريق إلى الأعلى كان أسهل بكثير من الطريق إلى الأسفل، ثم عدت أخيرًا إلى حانتي بدون أي مغامرة تُذكر.

في الليلة التالية، وفي موعدي بالضبط، وضعت قدميّ على الطريق المتعرج، كانت الساعة حينها الحادية عشر بالضبط. كان في انتظاري بالأسفل ماسكًا مصباحه. اقتربت منه وقلت:

- لم أنادي عليك ... هل بإمكاني التحدث الآن؟

- بالطبع يا سيدي.

- مساء الخير، وهاك يدي أسلم عليك.

- مساء النور، وهاك يدي أيضًا أسلم عليك.

مشينا سويًا صوب كشكه، حتى دخلنا وأغلق الباب، ثم جلسنا بجوار المدفأة.

- لقد حسمت أمري، سيدي.

هكذا قال وهو يميل إلى الأمام بينما يتحدث بنبرةٍ أعلى من الهمس بقليل.

– حسمت أمري بأنك لا يجب أن تسألني عمّا يقلقني أكثر من مرة. ظننتك شخصًا آخر ليلة البارحة، وهذا ما أقلقني.

– آها، ذاك الخطأ!

– لا، أقصد الشخص الآخر.

– ومن هو؟

– لا أعلم.

– هل يشبهني؟

– لا أعلم. لم أرَ وجهه قط، فذراعه الأيسر كان يغطي وجهه بينما كان يلوّح بذراعه الأيمن بقوة ... هكذا.

تابعت حركاته الحادّة المليئة بالشغف والقوة، ثم قال:

– اخلِ الطريق بربك!

ثم أتبع يقول:

– في إحدى الليالي كنت أجلس هنا بينما سمعت صوتًا ينادي ويقول: "هاااااااااااااي ... بالأسفل هنااااااك!"، فقمت ونظرت من الباب ووجدت شخصًا يقف عند الضوء الأحمر بالقرب من النفق

يلوّح بيده كما فعلت منذ قليل. كان صوته أجش غليظ، ثم صاح: "انتبه! انتبه!"، ثم قال مجددًا: "هااااااااااااااي ... بالأسفل هنااااااك!". حينها أمسكت مصباحي وأشعلت الضوء الأحمر وركضت نحوه وقلت: "ماذا جري؟ ماذا حدث؟ أين؟"، وظل الرجل واقفًا خارج ظلمة النفق. اقتربت منه كثيرًا بينما ما زالت أكمامه تغطي عينيه. ركضت نحوه ثم مددت يدي لإزاحة ذراعه، ثم اختفي.

– دخل إلى النفق؟

– لا، فقد دخلت إلى النفق حتى مسافة خمسمائة ياردة، ثم وقفت ووضعت مصباحي فوق رأسي رأيت به جدران النفق من مسافةٍ بعيدة، ورأيت بقعًا مبتلة تتساقط من الجدران ترشح عبر تقوّس النفق. ركضت بسرعة إلى الخارج مجددًا، ولكن هذه المرة بسرعةٍ أكبر من سرعة دخولي إلى النفق (لأنه يثير اشمئزازي)، ثم نظرت نحو الضوء الأحمر بمصباحي الأحمر أيضًا، وتوجهت صوب السلم الحديدي المؤدي إلى المعرض الكائن فوق الضوء، ثم نزلت مجددًا وعدت ركضًا إلى هنا. اتصلت بكلا الخطين متسائلًا:

– هل هناك خطبٌ ما؟

ثم جائني الرد من كلا الخطين:

– كل الأمور على ما يُرام.

شعرت بقشعريرة باردة جدًا تسري في ظهري وأنا أخبره أن ما رآه قد يكون خيالًا، وأن تلك الأمور التي تظهر لنا في بعض الأحيان تكون نتيجة لتأثر بعض الأعصاب الرقيقة التي تؤثر بدورها على وظيفة الإبصار، وكيف أن ذلك الأمر قد وقع لمرضى كثيرين، وأن كثيرًا من المرضى عرفوا لاحقًا ما كانوا يعانون منه، بعد أن ثبت ذلك لهم بالتجارب. قلت له أيضًا:

– أما بالنسبة للصوت الخيالي الذي سمعته، فاسمع صوت الرياح وهي تحفّ هذا الوادي الغريب ونحن نتحدث الآن، هذا غير تأثيرها الشديد على أسلاك التلغراف.

سمعنا صوت الرياح قليلًا، ثم تحسّن الحال قليلًا بعدما عرف المزيد عمّا تفعله الرياح بأسلاك التلغراف. على الرغم من قضائه مواسم شتاء عديدة في هذا المكان وحيدًا يترقّب، إلا أنه بدا متضايقًا من مقاطعتي لحديثه.

– استمحيك عذرًا.

هذا ما قلته له قبل أن يضع يده يده على ذراعي ويقول:

– بعد ست ساعات من رؤيتي لذلك الرجل وقع حادث شهير على نفس الخط، وفي غضون عشر ساعات كان القتلى والجرحى يُنقلون إلى المكان الذي ظهره فيه أول مرة.

سرت قشعريرة مخيفة في جسمي، ولكني حاولت إخفائها بقدر الإمكان. لا أنكر مدى غرابة تلك المصادفة، ولا شك أنها أثرت على عقله. ولكن لا شك أيضًا أن مصادفات كثيرة تقع ويجب أخذها بعين الاعتبار في هذه الحالة. ولكن عليّ أن أعترف (لأني أعرف أنه سيعترض على كلامي) أن لا أحد عاقل يسمح لتلك المصادفات أن تؤثر على حياته اليومية.

أكّد مرة أخرى على أنه لم ينهي حديثه.

اعتذرت له من جديد على مقاطعتي له.

وضع يده مرة أخرى على ذراعي ثم نظر إليّ بعينين باردتين وقال:

– كان هذا منذ عامٍ واحد، وبعد وقوع الحادث بستة أو سبعة شهور، وكنت حينها قد استفقت من المفاجأة والصدمة، ومع قرب الفجر وأنا أقف على باب الكشك نظرت نحو الضوء الأحمر وشاهدت نفس الطيف مجددًا.

توقف عن الحديث ونظر إليّ.

– هل نادى عليك؟

– لا، كان صامتًا.

– هل أزاح ذراعه؟

– لا، كان واقفًا عكس اتجاه الضوء، واضعًا يديه على وجهه هكذا.

راقبت حركاته مرة أخرى ... هذه المرة لم يكن التعبير إلا حِدادًا، فقد رأيت نفس التعبير على شواهد حجرية في المقابر.

– هل اقتربت منه؟

– دخلت الكشك وجلست، ربما لأجمع شتات أفكاري، وربما لأني أصبت بالإغماء. عندما توجهت إلى الباب مجددًا وجدت ضوء النهار فوق رأسي وقد اختفى الشبح.

– ألم يحدث شيء بعدها؟ ألم يقع حادث؟

لمس ذراعي من جديد بإصبعه السبابة مرتين أو ثلاث وهو يميل ناحيتي بشكل مخيف، ثم قال:

– ذلك اليوم، خرج القطار من النفق ولاحظت حينها لدى نافذة إحدى عربات القطار ناحيتي ما يبدو وكأنه أيادٍ ورؤوس، وشيء ما يلوّح إليّ. فور أن رأيت ما رأيته أشرت لسائق القطار بالتوقف حالًا. توقف السائق وسحب مكابح القطار، ولكنه توقف على بعد مائة وخمسين ياردة أو أكثر. ركضت وراءه وسمعت صوت صراخ وعويل مرعب. ماتت امرأة شابة جميلة فورًا في إحدى العربات، ثم نُقلت ووُضعت على الأرض هنا بيننا.

وجدت نفسي أعود بمقعدي إلى الوراء عفويًا ونظرت من اللوحات التي وضعها لنفسه.

- بالفعل، سيدي ... هذا ما وقع بالفعل كما أحكي لك.

لم أجد شيئًا أقوله، وجفّ جوفي للغاية. تحوّل صوت الرياح وهي تهب على أسلاك التلغراف إلى صوت بكاءٍ وعويل.

استمر الرجل في حديثه وقال:

- والآن، سيدي ... فكّر فيما حدث وانظر كيف تأثر عقلي. ظهر الطيف مرة أخرى الأسبوع الماضي، ومنذ ذلك الحين يظهر الطيف مرة ويختفي أخرى ... المرة تلو الأخرى.

- لدى الضوء؟

- لدى ضوء الخطر.

- كيف يبدو؟

- اخلِ الطريق بربّك!

كررّ نفس الجملة التي قالها من قبل بنفس حركاته الحادّة المليئة بالشغف والقوة، ثم أتبع:

– لم يعد هناك سلام ولا راحة، فذلك الطيف يناديني لدقائق كثيرة بصوتٍ غريب وكأنه يتعذب، ويقول: "بالسفل هناااااااك! انتبه! انتبه!" ... يظل واقفًا يلوّح لي ثم يرّن جرسي الصغير.

انتبهت لملاحظته الأخيرة وقلت:

– هل رنّ جرسك الصغير عندما كنت هنا وتوجهت أنت صوب الباب؟

– مرتين.

– لماذا؟ كيف يضلّلك خيالك إلى هذه الدرجة؟ لقد كانت عيناي على الجرس، وأذناي كذلك. أنا متأكد تمامًا أن الجرس لم يرّن، لا حينها ولا في أي حينٍ آخر، إلا بصورة طبيعية عندما يحاول أحدهم في المحطة الاتصال بك.

هزّ رأسه وقال:

– لم أخطئ لهذه الدرجة ولو مرة، سيدي. لم أخلط بين جرس ذلك الطيف وجرس العمل. جرس الطيف يأتي بهزة غريبة في قلب الجرس نفسه ... أنا لم أؤكد لك أن الجرس يلفت النظر، ولا أتعجّب من أنك لم تسمع الجرس ... الأهم أنني سمعته.

– وهل ظهر الطيف بالخارج عندما خرجت؟

– أجل، كان هناك!

- في كلا المرتين؟

ردّ عليّ بقوة:

- أجل، في كلا المرتين!

- هل ستقوم لدى الباب معي وتبحث عنه الآن؟

قضم شفته السفلى ثم قام، على الرغم من عدم رغبته في ذلك نوعًا ما.

فتحت الباب ووقفت على عتبة الكشك بينما وقف هو لدى المدخل.

رأيت ضوء الخطر، ومدخل النفق الكئيب، وجدرانه الحجرية المبتلة العالية، والنجوم من فوقه.

سألته:

- هل تراه؟

نظرت إلى وجهه ... عيناه كانتا بارزتين ومجهدتين، ولكن ليس أكثر من إجهاد عينيّ عندما نظرت بجدٍ ناحية نفس المكان.

ردّ وقال:

- لا ... ليس هناك.

- معك حق.

دخلنا الكشك مجددًا وأغلقنا الباب وعاد كلٌّ منّا إلى مقعده. كنت أفكر حينها كيف أستفيد من هذه الميزة (ميزة عدم رؤيته للطيف كما أحب أن أطلق عليها) بعد أن أخذ الحوار بيننا هذا المنحى، بدلًا من أن ندخل في موضوعات جادة عمّا هو حقيقي وما هو خيال، وفي مثل هذه الموضوعات بالذات أجد نفسي مغلوبًا على أمري.

قال الرجل:

– بمرور الوقت، سيدي، ستفهم أن ما يقلقني في هذا الأمر هو معنى ذلك الطيف.

لم أفهم مغزى ما قاله حينها، ثم سألني:

– أقصد ... ما الذي يحذّر منه؟

نظر إلى النار بتأمل، ثم نظر إليّ وقال:

– ما الخطر؟ وأين الخطر؟ هناك خطرٌ ما وشيك في هذا الخط ... مصيبة كبيرة ستقع. ستكون هذه المرة الثالثة لا شك في ذلك، بعد كل ما وقع من قبل. ولكن الأمر الأكيد أن هذه لعنة تطاردني، ماذا أفعل إذًا؟

سحب منديلًا ومسح قطرات العرق التي تساقطت من جبهة رأسه الساخنة.

أكمل حديثه وقال:

- إذا أرسلت تلغرافًا بوجود خطر، فلن يكون لدي سبب أوضحه.

أخذ يمسح كفي يديه بنفس المنديل وأكمل:

- سأدخل في مشاكل ولن تكون النتيجة في صالحي. سيظنون أني مجنون. سأقول في تلغرافي:

(خطر! انتبهوا!)

ثم سيأتني الرد منهم:

(أي خطر؟ وأين؟)

سأقول حينها:

(لا أعرف، ولكن انتبهوا بربكم!)

وحينها فقط سيقيلوني من عملي، لا شيء آخر.

بدا مرضه العقلي تافهًا، فالرجل يعاني من ألم الضمير، ويكاد لا يتحمل مسؤولياته الحياتية الغامضة.

عاد برأسه المغطى بشعره الأسود إلى الوراء ومرّر يده بين خصلاته في حزن شديد وقال:

- عندما ظهر الطيف لأول مرة لدى الضوء الأحمر ... لَمَ لم يخبرني عن مكان وقوع الحادث؟ لَمَ لم يخبرني كيف أتفاداه إن أمكن؟ وأين أخفى وجهه في المرة الثانية؟ لَمَ لم يخبرني أن تلك الشابة الجميلة ستموت؟ كان من الممكن أن تبقى في بيتها. إذا كان ذلك الطيف يظهر في المرتين الأوليين ليخبرني أن تحذيراته حقيقية، ويعدني للمرة الثالثة، لَمَ لا يحذرني بصراحة الآن؟ ساعدني يا رب! فأنا رجل الإشارة المغلوب على أمره في هذه المحطة المعزولة. لَمَ لا يظهر الطيف لشخصٍ آخر يصدّقه الناس ويستطيع التصرف؟

عندما رأيته على هذه الحالة، وجدت أنه صار من الواجب لأجل هذا الرجل البائس، ولأجل السلامة العامة أيضًا، أن أغيّر تفكيره. وعليه، وضعت كل تلك الأمور المتعلقة بما هو حقيقي وما هو خيال، وأقنعته بأن من يقوم بهذا العمل يجب أن يكون سليم العقل، وعليه أن يفهم مهام عمله، ومع ذلك وجدته لا يفهم ذلك الطيف الغريب. نجحت باقتدار في تغيير قناعته. صار هادئًا، وأصبح ينتبه أكثر لكل المصادفات التي تحدث مع اقتراب الليل، ثم تركته في الثانية صباحًا. صحيح أني عرضت عليه البقاء معه طوال الليل، ولكنه رفض.

نزلت عبر الطريق المتعرج ونظرت إلى الضوء الأحمر خلفي أكثر من مرة. لم أحب ذلك الضوء، ولم أكن لأستمتع بنومٍ هانئ وذلك الضوء يعلوني، ولا سبب لديّ يدعوني لإخفاء شعوري هذا. لم أحب

الحادثين وحادث الشابة المتوفاة، ولا سبب لديّ يدعوني لإخفاء شعوري هذا أيضًا.

كل ما جال في خاطري بسرعة في هذه الأثناء هو طريقة تصرفي وأنا أستمع لهذا الحوار . لقد أثبّت أن الرجل ذكي، وحذر، ومثابر، ودقيق، ولكن إلى متى سيظل محافظًا على سلامة عقله؟ وعلى الرغم من وظيفته الثانوية، إلا أنه يشغل وظيفة خطرة. هل أقبل (على سبيل المثال) أن أقضي بقية حياتي على أمل أنه سيستمر في أداء عمله بدقة؟

لم أقدر على التغلب على ذلك الشعور الذي داهمني حيال ما قاله الرجل لي بشأن مشرفيه في الشركة. لم يكن صادقًا مع نفسه أولًا، ولم يمنح نفسه حلًا آخر. حينها فقط قرّرت أن أصطحبه (أو الحفاظ على سره في الوقت الراهن) إلى أفضل طبيب نفسي في هذه المنطقة لنعرف رأيه. أخبرني الرجل أنه سيعمل في موعدٍ مختلف ليلة الغد، وأنه سيكون خارج العمل لمدة ساعة أو ساعتين بعد غروب الشمس، ثم سيعود مجددًا مساءً. قررت أن أعود إليه مجددًا في هذا الموعد.

كانت الليلة التالية رائعة، وقد خرجت مبكرًا حتى أستمتع بها.

لم تكن الشمس قد غربت بعد حينما أخذت طريق الحقل بالقرب من أعلى ممشى ممهد بالحشائش. قلت لنفسي سأقسّم الطريق إلى نصف ساعة ذهابًا ونصف ساعة إيابًا، ومن ثم أذهب لكشك رجل الإشارة.

نزلت على حافة الممشى قبل أن أكمل نزهتي ونظرت إلى الأسفل من نفس المكان الذي رأيت فيه الرجل أول مرة. لا يمكنني وصف الخوف الذي تملكني حينها؛ رأيت رجلًا يقف لدَى مدخل النفق يضع كمّه الأيسر على عينيه، ويلوّح بذراعه الأيمن.

تلاشى الخوف الغريب الذي تملّكني للحظة، لأني شاهدت ذلك الرجل في هيئة رجلٍ فعلا، ومجموعةٍ صغيرة من الرجال تقف على مسافةٍ قريبة منه يلّوح لها بذراعه بنفس الأسلوب. لم يكن ضوء الخطر يعَمل حينها، وحوله مجموعة من القضبان الخشبية والأقمشة داخل كوخ لا يتعدى حجمه حجم الفراش ... تلك الأمور كانت جديدة عليّ.

تّملكني شعور بأن خطبًا ما خطأ، وداهمني خوف متبوع بتأنيب ضمير من أن أمر خطير قد وقع بعد أن تركت الرجل وحيدًا أمس ولم أرسل إليه أحد ليرى ما يفعله. نزلت إلى الأسفل عبر طريقٍ مدبب بأقصى سرعة.

سألت الرجال:

– ما الخطب؟

– عثرنا على رجل الإشارة مقتولًا هذا الصباح، سيدي.

– الرجل الذي يعمل بهذا الكشك؟

– أجل، سيدي.

– أرجوك قل لي أنه ليس الرجل الذي أعرفه.

– سنطلعك على جثته للتعرف عليه.

تحدث هذا الرجل للآخرين وكشف الغطاء بحزن عن رأس القتيل، ثم أمسك بطرف القماش وقال:

– تشوّهت ملامحه تمامًا.

أغلق الرجال الكوخ وسألتهم:

– أوه، كيف حدث هذا؟!

– يبدو أن جرّار قطار قد دهسه. لا يوجد أحد في إنجلترا بخبرته. كان يمسك بالمصباح، ثم جاءه القطار خارجًا من النفق من خلفه ودهسه. هذا الرجل كان يقود الجرّار وسيوضح لك ما حدث ... وضّح للمحترم ما حدث يا "توم".

عاد الرجل الذي كان يضع رداءً أسودًا غليظًا إلى مكانه السابق لدى مدخل النفق، ثم قال:

– عندما اقتربت من منحنى النفق رأيته يقف لدى نهاية النفق من بعيد. لم يكن هناك وقت كافٍ لإبطاء السرعة، ولكني أعرف أنه رجل حريص للغاية. لم يطلق الصافرة، وحينها بدأت في إيقاف الجرّار وأنا في اتجاهه، ثم ناديته بأعلى صوت.

– ماذا قلت؟

– قلت له: "بالسفل هنااااااك! انتبه! انتبه! اخلِ الطريق!

انخلع قلبي من مكانه ...

– أوه، كان وقتًا عسيرًا، سيدي. لم أتوقف عن الصياح ثم وضعت ذراعي هذا على عيني حتى لا أرى أمامي، ولوّحت بذراعي هذا ... ولكن لا فائدة.

لم أسمح لكلمات الرجل أن تتحول إلى حكاية غامضة كغيرها، ولكن الأكيد أن مصادفة تحذير سائق الجرّار لم تتضمن فقط الكلمات التي ظل رجل الإشارة البائس يعيدها على مسامعي لدرجة أصابته بالجنون، ولكن أيضًا هذه الحركات التي رأيت سائق الجرّار يقلدّها.



سقوط بيت أشر

إدجار ألان بو



في يومٍ ممل مظلم ساكنٍ من أيام الخريف التي تتدلى فيها الغيوم من السماء بكبرياء، كنت أسير وحيدًا على ظهر حصاني داخل حقل مظلمٍ كئيب، وبعدما انسدلت ستائر الليل على الدنيا وقعت عيناي على "بيت أشر" القاتم. لا أذكر كيف بدا البيت، ولكن بنظرةٍ واحدة عليه شعرت بكآبةٍ لا تُطاق اجتاحت روحي. كآبة لا تُطاق فعلًا لأن شعوري لم يُزَحِ بأي إحساسٍ شاعري جانبه السرور يتولد داخل العقل عندما نرى حتى أكثر الصور خرابًا وفظاعة على حقيقتها. نظرت إلى هذا المشهد أمامي — البيت وما يحيط به من مناظر طبيعية وإلى جدرانه السوداء الحزينة ونوافذه الدائرية الشاغرة وحشائشه القصيرة وجذوع أشجاره البيضاء المتحللة — ويعتريني حزن لا يُقارن بأي شعور إنساني في العالم، ولا ينافسني فيه إلا سكّير يتخبط من أثر الأفيون وآخرٌ متّزن يعاني من مرارة الحياة اليومية، يكشف بشاعة المكان. شعرت بفتورٍ مريض أصاب قلبي أو حالة من الكآبة العقلية

التامة لا يقوى عليها أي خيال. ما السبب؟ فكّرت ... ما الذي أثار حفيظتي وأنا أتأمل "بيت أشر"؟ غموضٌ لا تفسير له ولا أقوى على التعامل مع الخيالات التي أطلقها عقلي بسببه. كنت مضطرًا لإقناع نفسي - رغمًا عنها - بتفسيرٍ غير مقنع بأن هناك بعض العناصر الطبيعية البسيطة من حولنا تجتمع سويًا لتكوّن قوة تؤثر علينا. ولكن فهم هذه القوة يحتاج إلى اعتباراتٍ أبعد بكثير من فهمنا. فكّرت ... قد يكون هذا الشعور بسبب تجمّع بعض عناصر المشهد سويًا؛ وهو تجمع قد يكون كافيًا لتغيير أو تحوير قدرة المكان على ترك انطباعٍ حزين في نفس من ينظر إليه. أخذت هذه الفكرة في الاعتبار ثم لجّمت حصاني عند حافة بركة سوداء متوهجة ذات سطحٍ بريق أملس. نظرت إلى الأسفل - وأنا أحس بقشعريرة أقوة من سابقتها - ناحية الحشائش الأرضية الرمادية المتناثرة والتي رسمت بتناثرها أشكالًا غريبة وشاذة، ثم جذوع الأشجار الضخمة، ونوافذ البيت الدائرية الشاغرة.

على أية حال، اتخذت قرارًا بالإقامة مؤقتًا في هذا البيت الكئيب، ربما لبضع أسابيع. كان "رودريك أشر"، مالك البيت، أحد رفقائي الطيبين فيما مضى، ولكن زمنًا طويلًا قد مضى منذ آخر لقاءٍ بيننا. ربما مؤخرًا فقط وصلني خطاب من بقعةٍ بعيدة في الريف - خطاب منه - يُلّح عليّ فيه بالمجيء ولا يقبل فيه إلا بموافقتي على المجيء. بدا من كلماته أن مرض "التصلب المتعدد" الذي أصابه قد أدّى إلى هيج

أعصابه. حدّثني عن مرضه البدني الشديد الذي ألّم به – اضطراب عقلي يثير جنونه – ورغبته المضنية في رؤيتي نظرًا لكوني صديقه الأقرب والوحيد، حيث رأى في وجودي المسبب لسعادته دائمًا بعض التخفيف لمرضه. لم يترك لي أسلوبه الودود النابع من قلبه مجالًا للتردد، وعليه فقد لبيّت النداء وجئت للقائه الذي مازلت أعتبره لقاءً شخصيًا.

رغم أننا كنا صديقين حميمين منذ الطفولة، إلا أنني لم أعرف عنه إلا القليل. كان متحفظًا بشدة ودائمًا، لكنّي كنت أعرف أن أسرته العريقة جدًا كان معهودًا عنها الحساسية الزائدة بشكل غريب، ظهر ذلك على أعمالهم الفنية الراقية على مر العصور، وشاركت في عدد من الأعمال الخيرية السخية غير البارزة، هذا غير عشقهم الكبير للأمور المعقدة؛ ربما أكثر من حبهم للأمور الجمالية المعهودة والواضحة، كعلوم الموسيقى مثلًا. عرفت أيضًا أنا هناك حقيقة لافتة للانتباه بخصوص أصول "عائلة أشر"؛ فهي عائلة مبجلة على مر العصور لم يكن لها فروع منبثقة منها أبدًا، بمعنى أن العائلة بأكملها تنحدر من جد واحد، ولم تشهد تباينًا أو اختلافًا إلا في أضيق الحدود. رأيت أن هذا العيب الذي يسري في هذه العائلة كان أفضل طريقة للحفاظ على العائلة نفسها بأكبر قدر من الأشخاص الموثوق فيهم. فكّرت بعض الشيء في الأثر الذي قد يتركه أحد أفراد العائلة في الآخر، على مر عصور طويلة، وفي رأيي أن هذا العيب كان له تأثير مباشر وخلق حالة متوارثة من الجد إلى الحفيد حافظت على اسم العائلة، ذلك الاسم الغريب والمريب الذي حافظ عليه الاثنان – الجد

والحفيد – تحت عنوان "عائلة أشر"، هذا الاسم الذي يستخدمه أهل الريف للإشارة إلى العائلة نفسها وبيتها كذلك.

بإمكان القول بأن الأثر الناجم عن تجربتي الطفولية – النظر إلى البركة – عمّق انطباعي الأول. لا شك أن إيماني المتعاظم بالخرافة قد زاد من سرعة تعاظمه، ولكن أي خرافة؟ مثلًا، عرفت من فترة طويلة أن الخرافة هي ذلك القانون المتناقض الذي يقول أن كل المشاعر الإنسانية أصلها الخوف. قد يكون إيماني هذا هو سبب نظري مجددًا ناحية البيت نفسه، من صورته المنعكسة على سطح البركة، حتى كبر بداخلي خيال غريب ... خيال سخيف بالتأكيد، ولم أذكره إلّا لإبانة تلك المشاعر القوية التي غمرتني. فعلت نفس الشيء مع خيالي لأصدق كل ما يتعلق بالبيت والجو الغريب المحيط به وبالجوار؛ ذلك الجو المتنافر مع الهواء الطبيعي والصادر عن جذوع الأشجار المتعفنة، والجدار الرمادي، والبركة الراكدة، والبخار المميت الغامض.. كل ذلك خلق جوًا مملًا بطيئًا ذا صوتٍ ضعيف ولون رمادي باهت.

نفضت عن روحي ما ظننت أنه مجرد حلم، ونظرت مجددًا ناحية البيت، متفحصًا إياه هذه المرة. وقد كانت الصفة الأوضح والتي تغلب عليه من أول نظرة هي عراقته وقدمه وتغيرات ألوانه على مر الزمان، كل هذا ترك عليه أثرًا جميلًا. تنتشر الفطريات على الباحة الخارجية للبيت وتتدلى من سقف البيت كشبكة عملاقة جميلة. إلا أن

كل هذا كله كان بعيدًا كل البعد عن أي وحشة غريبة تحيط بالمكان. لم يسقط أي جزء من البيت، وهنا تشعر بغرابة التنافر بين سلامة أجزائه من جانب وأحجاره المتناثرة المتفتتة من جانبٍ آخر. هذا المشهد ذكّرني بعملٍ خشبي قديم عفى عليه الزمن لدرجة التعفن في إحدى المقابر المهجورة التي لا تطولها ولو نسمة من نسمات الهواء خارجها. وبعيدًا عن هذا الإيحاء بتعفن المكان، فالواجهة الخارجية أوحت بدورها بنوعٍ ما من عدم الارتياح، وربما تقع عينا الملاحظ المتفحص على تشققاتٍ لم تطلها أي يد من قبل، تمتد من واجهة سقف البيت عبر جداره بطريقٍ متعرج حتى تضل طريقها إلى مياه البركة الراكدة.

امتطيت حصاني من جديد بعد ملاحظاتي تلك وسلكت طريقًا قصيرًا نحو البيت. أخذ الحصان مني خادم كان في انتظاري، ثم دلفت من مدخلٍ قوطي إلى صالة البيت. رافقني خادم بخطى خفيّة في صمتٍ تام عبر ممرات كثيرة مظلمة ومعقدة إلى مرسم سيده. كثيرٌ من الأشياء التي صادفتني في طريقي إلى الداخل ساهمت في ازدياد تلك المشاعر الغامضة التي خالجتني وتكلمت عنها من قبل. وعلى الرغم من أن تلك الأشياء التي قابلتها – المنحوتات على الأسقف، والمطرزات القاتمة على الجدران، والسواد الداكن على الأرضيات، وكل تلك الجوائز التذكارية التي اهتزت وأنا أخطو بجوارها – كانت جزءًا من أمورٍ اعتدت عليها من صغري، وعلى الرغم من اعتيادي على كل ذلك، إلا أنني استغربت من مدى وحشة تلك الأحاسيس

التي داهمتني وأنا أنظر إلى صورٍ عادية بالنسبة لي. قابلت طبيب العائلة على سُلّم البيت، ملامحه بدت كمزيجٍ من الخبث والارتباك، دنا مني ببعض الخوف وأكمل طريقه. فتح الخادم باب غرفة ثم قدمني إلى سيده.

وجدت نفسي في غرفة واسعة وعظيمة جدًا، فيها نوافذ طويلة ضيقة بارزة على مسافةٍ بعيدة من الأرضية المصنوعة من خشب البلوط جعلت من الصعب الوصول إليها. وجدت ومضات ضعيفة من ضوءٍ قرمزي طريقها إلى الداخل من خلال ألواح النوافذ الزجاجية المحاطة بتعريشة خشبية، سمحت ببروز أكثر الأشياء أهمية في الغرفة. وجدت عيناي تتوهان في محاولة للوصول إلى أبعد زاوية في الغرفة أو خبايا سقف الغرفة المقبب المربك. وجدت ستائر داكنة معلقة على جدران الغرفة، ثم لاحظت أن أثاثها كثير، وغير مريح، ومليء بالقطع الأثرية، وممزق. رأيت كتبًا وآلاتٍ موسيقية كثيرة متناثرة هنا وهناك بدون أن تعطي أي حيوية للمكان. شعرت أني أتنفس هواءً من الحزن ... هواءً من الكآبة العابسة العميقة التي لا حلّ لها غزا الغرفة من أعلاها إلى أسفلها.

فور دخولي الغرفة قام "أشر" من على كنبته التي كان ممددًا عليها وحيّاني بطريقة شعرت فيها بالدفء والمودّة المبالغ فيهما من رجل متكلّفٍ ممل. إلا أنني وبنظرة واحدة اقتنعت بأنه صادق تمامًا. جلسنا ونظرت إليه وهو صامت ورأيت في قسمات وجهه بعضًا من الشفقة

وبعضًا آخر من الرهبة. ولم لا ولم يحدث أن تغير رجل بشكلٍ كامل في فترةٍ قصيرة مثل "رودريك أشر". أقنعت نفسي بصعوبة بأن الرجل الجالس أمامي كان من قبل رفيق طفولتي. ولكن، لطالما كان وجهه بارزًا طول الوقت. بشرته شاحبة، وعيناه كبيرتان مائعتان لامعتان إلى أبعد حد، وشفتاه نحيفتان بعض الشيء شاحبتان مرسومتان بانحناءة جميلة على الرغم من ذلك، وأنفه أنيق على الطراز العبري ذو فتحتين عريضتين بشكل غير معتاد، وذقنه مرسومة جيدًا وترسم معها رغبة في المزيد من العنفوان، وشعره أشبه بشبكة ليّنة وصلبة. تلك التقاسيم المدعومة بصدغٍ يعلوه توسعٌ مفرط جعلت شكله لا يُنسى أبدًا. ومع تلك التقاسيم والتعبيرات التي ترتسم عليها بدا التغيير على مظهره لدرجة جعلتني أشكّ فيمن أتحدث إليه الآن. بشرته الشاحبة المروعة، والبريق البارز من عينيه – بخلاف تقاسيم أخرى – جعلتني أشهر بالدهشة ... بل بالخوف كذلك. شعره الحريري صار غير مهندم ولم تتبق منه إلا شعيراتٍ معدودات تطفو على رأسه بعدما كان شعره يتدلى على وجهه، ولم أقدر حينها – مهما فعلت – أن أربط بين هذا الرسم الزخرفي الذي بدا عليه وبين أي مظهر من مظاهر الحياة.

حتى أنا نفسي في إحدى الأوقات بدا شكلي غير متناسق ولا متسق، وسرعان ما وجدت أن ما حدث لي كان نتيجة لسلسلة من المحاولات اليائسة غير المجدية للتغلب على خوفي المعتاد.. حالة من التوتر العصبي الزائد. وعلى الرغم من ذلك، كنت متجهزًا لمنظرٍ

كهذا، ربما بسبب خطابه أكثر من بعض الذكريات عن صفاته الصبيانية وما وجدته عليه من حالة بدنية ومزاجية غريبة. حركاته كانت متجهمة مرة وكئيبة مرة. تغيرت نبرة صوته بسرعة من التردد المرتجف (كغريزة حيوانية أصيلة بداخل أي إنسان) إلى الإيجاز المفعم بالحيوية. صوته الحاد الثقيل المتئد، ونبرته الجوفاء، وكلامه القليل المتوازن المضبوط، الذي تسمعه حينما تتحدث إلى رجلٍ سكّير أو أحد مدمني الأفيون، حتى في أكثر اللحظات إثارة.

تكّلم حينها عن سبب زيارتي له، ورغبته المضنية في رؤيتي، والعزاء الذي توقع مني أن أبديه له. دخل في حكايةٍ مطولة عن سبب إعيائه. تحدث عن شرٍ مقيم داخل عائلته، لطالما بحث عن حلٍ له، ثم قال بحدة وعصبية أن لا حل له في المستقبل القريب. شعرت بأشياءٍ غير طبيعية، أشياء حكى عنها أثارت اهتمامي وحيرتي، وقد يكون ذلك بسبب كلماته وأسلوبه الثقيلين. كان يعاني كثيرًا من حدة أحاسيسه؛ لم يطعم إلا وجبة شهية، ولم يلبس إلا قماشًا بعينه، وأرهقته روائح الزهور، وعيناه تتعبان من أضعف شعاع ضوء، ولم يرتح إلا لأصواتٍ غريبة تصدر عن آلاته الوترية، والأصوات الأخرى تصيبه بالرعب.

وجدته يسقط من شدة الرعب والخوف ويقول:

– يجب أن أموت! يجب أن أموت بهذه الحماقة الساذجة! وإلا ... سأضيع. أنا مرتعب من الغد، ليس لمجرد قدومه، ولكن أخاف مما

سيأتي بعده. أنا أنتفض رعبًا من أقل حادث تافه يزلزل أركان روحي. لست أخاف الخطر نفسه، بل الأثر الذي سيتركه عليّ. أنا في حالة متوترة يُرثى لها، وأشعر إن عاجلًا أم آجلًا بأني سأفقد حياتي وعقلي سويًا خوفًا من ذلك الوهم القاتم ... خوفًا من الخوف.

لاحظت بين ثنايا كلماته المتقطّعة وبين تلميحاته المتكسرة الملتبسة شيئًا آخر بخصوص حالته العقلية. الرجل كان مربوطًا بانطباعات خرافية تجاه البيت الذي يسكنه، ولم يجرؤ ولو مرة لسنين طويلة أن يتحدث عن أثر هذه الطاقة الخرافية إلا بكلماتٍ غامضة جدًا ... ذلك الأثر الناتج عن أمور غريبة تحدث بشكلٍ صريح وواضح في بيت العائلة جعلته يعاني كثيرًا وأثرت في روحه. ذلك الأثر يسكن جدران البيت الرمادية وأبراجه وبركته الكئيبة ... كل تلك الأشياء شهدت ذلك الأثر ونقلته إلى روحه.

اعترف – على الرغم من تردده – أن بعضًا من تلك الكآبة الغريبة التي تحيط به تعود إلى أسباب طبيعية ومنطقية أيضًا؛ مرض أخته الحبيبة الشديد المزمن الذي يقربّها كل يوم من الموت، أخته الوحيدة المتبقية له ومعه منذ سنين طويلة. قال بحسرة:

– موها ... لا يمكن أن أنساه ... موها سيتركني يائسًا ضعيفًا ... أختي هي آخر فرد في عائلة "أشر".

وبينما كان يتحدث، مرت السيدة "مادلين" – هكذا كان اسمها – من ركن بعيد في الغرفة دون أن تلاحظ وجودي، ثم اختفت. نظرت إليها بدهشة شديدة مع رهبةٍ لا أنكرها، رغم أني لم أهتم بمشاعري تلك. تملكني شعورٌ بالذهول بينما كانت عيناي ترقب خطواتها المتقهقرة. عندما أغلقت الباب خلفها نظرت إلى أخيها رغمًا عني، ولكنه وضع وجهه بين يديه وشعرت بشحوبٍ غطّى وأضعف أصابعه التي ظلت تمسح دموعه.

حيّر مرض السيدة "مادلين" أطبائها، لكن التشخيص غير الاعتيادي لحالتها كان اللامبالاة الشديدة، وفقدان العقل بالتدريج، والعواطف المتكررة رغم سهولتها والتي خلقت بداخلها شخصية متحفزة نوعًا ما. وحتى الآن، مازالت صامدة أمام الضغط الذي يمارسه مرضها، ولم ترقد على فراشها أبدًا. ولكن مع نهاية ليلة وصولي البيت استسلمت (كما أخبرني شقيقها تلك الليلة بحزن غير مسبوق) وانبطحت أرضًا لتلك القوة التي حطمتها، وعلمت حينها أن اللمحة البسيطة التي رأيتها فيها هي الأخيرة؛ على الأقل في حياتها.. ولن أراها مجددًا.

مرت ليالٍ عدة لم يأت اسمها على لسان "أشر" ولا حتى لساني، وخلال تلك المدة كنت منشغلًا في مساعيّ المضنية للتخفيف من الكآبة التي سكنت روح صديقي. رسمنا سويًا وقرأنا سويًا، واستمعت وحدي – وكأني في حلم – لتأويلات موسيقى جيتاره الرنّانة. ومع مرور الوقت ازدادت الحميمية بيننا لدرجة سمحت لي بالدخول إلى

تلابيب روحه، وكلما دخلت أكثر وجدت نفسي أحزن لمدى عبثية محاولاتي التخفيف عن روحه التي امتلأت بالظلمة، وكأن طاقتي الإيجابية الكامنة التي انصبت بالكامل على كل عناصر الكون المعنوية والمادية وغرقت كليًا إثر شعاعٍ واحد من الكآبة.

لا شك أني سأظل محافظًا على ذكرى تلك الساعات المهيبة التي قضيتها وحدي مع سيد بيت "أشر"، إلا أني لن أقدر على فهم معنى المغزى من الدراسات أو الوظائف التي ورطّني فيها أو دفعنا إليها. شعرت بمثالية تامة غير نافعة تلقي على روحي ضوءًا لامعًا غطّاني وغطّى كل شيءٍ حولي. ألحانه الحزينة هذه لن تترك أذنيّ تهنأ بليلة سلامٍ واحدة.

وعلى صعيدٍ آخر، فكّرت مليًا بمنتهى الألم في معنى ذلك الشذوذ المتفرّد والإسهاب الذي شاب ألحان "فون ووبر" الأخيرة. تلك الرسومات التي استقرت فيها تهيؤاته الجليّة، حتى كبرت شيئًا فشيئًا، ثم صارت غموضًا أثار القشعريرة في جسمي لأني لم أعلم حينها — وأيضًا بسبب تلك الرسومات (التي شعرت فيها بالحياة طالما كانت أمامي) — لَم كانت مساعيّ الحثيثة في استنباط ولو جزء بسيط من معنى كلماتٍ كُتبت بالكاد هباءً. أسرني ببساطة تصميماته ووضوحها وأثار إهتمامي. لو كان على وجه الأرض رجل استطاع رسم فكرةٍ في عقله، لكان هذا الرجل هو "رودريك أشر". أما بالنسبة لي أنا، ووسط تلك الأجواء التي تحاصرني، شعرت بفضل الأفكار الغامضة

التي ألقاها عليّ صديقي المُصاب بوسواس المرض من خلاله لوحاته الزيتية برهبةٍ لا تُطاق، رهبة لم أشعر بمثيلٍ لها إلا وأنا أتأمل ألحان "هنري فوسيلي" التي تنبض بالحياة.

تجسدت إحدى المفاهيم السيريالية – التي ساهمت بالكاد في إحدى لوحاته الفنية التجريدية – على هيئة كلمات على الرغم من ضعفها. صورة صغيرة الحجم مهّدت مدخل قبو أو نفق طويل جدًا على هيئة مستطيل، جدرانه منخفضة ناعمة بيضاء لا يشوبها شيء أو جهاز معلق عليها. بعضٌ من لمسات ذلك التصميم ساهم في تعضيد فكرة أن هذا التجويف على عمق كبير تحت الأرض. لم أرَ مدخلًا له في أي جزءٍ منه على الرغم من طوله الشديد، ولم ألحظ مصباحًا أو أي مصدر إضاءة صناعية، إلا أن فيضانًا من الأضواء كان يعم النفق ويمهد الدرب في هيبةٍ مخيفة غير طبيعية.

تحدثت منذ قليل عن الحالة المرضية التي يعاني منها صديقي والتي جعلت أعصابه السمعية حساسة للغاية لا تتحمل أي موسيقى، باستثناء بعض الآلات الوترية. ربما كان هذا بسبب انحسار حاسة سمعه إلى جيتاره الذي خلق بداخله ذلك الأداء الرائع. إلا أن حماسه وتوجهه الغريب نحو الارتجال أمرٌ لا يُعتد به. لابد أن تلك النوتات الموسيقية وكلماته التي تراود خياله (لأنه كان دومًا محاط بكلماتٍ ارتجالية مسجوعة ومقفّاة) هي نتاج تركيزه الزائد الذي لاحظت

مسبقًا أنه لا يظهر إلا في لحظاتٍ معينة من الإثارة الفنية. مازلت أذكر كلمات إحدى تلك المقطوعات، والأرجح أني أعجبت كثيرًا بالطريقة التي ألقاها بها، لأن كلماتها الغامضة – على قدر ما أعجبتني – جعلتني أفهم ولأول مرة جزء كامل من عقل "أشر" المترنح رغم شموخه. جرت كلمات مقطوعته "القصر الملعون" على نحوٍ وثيق، بالرغم من عدم دقتها، فكانت كما يلي:

(1)

ملائكةٌ ذات قلوبٍ طيبة

تسكن أوديتنا الخضراء.

يقف ملكٌ في قصرٍ جميلٍ لامع،

تناطح قبته السماء.

يبسط حكمه على الدنيا،

ولا يقدم ملاكٌ على بسط أجنحته،

ولو في الخفاء.

(2)

راياتٌ صفراءٌ شامخة ذهبية

ترفرف وتحتضن الهواء.

(كان هذا في زمانٍ غابر)

وكل نسمة ليلة حينها

كانت تلفح الأسوار والبناء.

في ذلك اليوم الجميل،

ذهبت ريحٌ طيبة.

(3)

والناس يمرحون في الأودية ببهاء،

ومن نافذتين منيرتين في وادٍ سعيد،

تتراقص الأرواح دون انتهاء.

تعزف على الأعواد ملائكةٌ

حول العرش يلتفّون بلا عناء.

والملك حينها فوق عرشٍ أرجواني،

لا تشاركه في الحكم أرضٌ ولا سماء.

(4)

الباب مزدانٌ بالياقوت والكستناء

واللؤلؤ يعلوه والمرجان.

علت على جانبيه أصواتٌ ذات أصداء،

أبواقٌ صادعة نغماتها تعلو وتعلو وتعلو،

لا تعرف في حياتها إلا الموسيقى والغناء.

تصدع الأبواق لمليكها المُفدّى ذي الجمال

والحكمة والأبهة والذكاء.

(5)

لكن جاءهم شرٌّ نشر الحزن في الأرجاء

(دعونا ننعِ أنفسنا، فلا نهار جديد

سيأتينا بعدما سقط الملك من العلياء.

والآن أضحى المجد والأبهة من الماضي،

وصار الزمان قصةً سوداء.

(6)

والمارة الآن يرون بأعينهم أودية قفراء،

يشهدون الموت والخراب من نوافذهم الحمراء.

لا تسمع آذانهم هناك صوتًا،

إلا ألحانًا سوداء.

وكفلكٍ في النهر يجري،

شرٌ مقيمٌ سريع الخطى

لا يترك في الوادي إلا العزاء.

أتذكر حينها أن كلمات تلك المقطوعة خلقت بداخلنا قطارًا من الأفكار تحول بعدها إلى رأي بداخل دماغ صديقي، رأي لا أستطيع أن أعوّل عليه لحداثته، وهو نفس الرأي الذي حافظ عليه بعناد شديد. كان رأيًا ضعيفًا حساسًا كأعواد النباتات الخضراء. ولكن في أعماق أفكاره الملتوية، كانت لكل فكرة شخصية جريئة تتعدى حدودها تحت ظروفٍ معينة ضمن نظامٍ لا يعرف النظام. لا تكفي كلماتي وصف ما أشعر به ولا ما يحاول حثيثًا إقناعي به. إلا أن اعتقادي كان مرتبطًا (كما أشرت مسبقًا) بتلك الأحجار الرمادية التي بُني بها بيت آبائه وأجداده. ذلك الاعتقاد والشعور كان يغزو المكان ويغزو فكره معه بفضل تلك الأحجار – ربما بسبب تسلسلها الهرمي وربما بسبب الفطر المتراكم عليها وربما أيضًا بسبب تلك الأشجار المتعفنة – وثبات تلك الحالة بدون أي شيء يعكرها، وانعكاس كل ذلك على مياه البحيرة الراكدة. قال صديقي أن الدليل على هذا الإحساس يبدو واضحًا (وهنا ركّزت في حديثه) في كثافة الجو حول المياه والجدران، إلا أن النتيجة غير مكشوفة في ظل هذا التأثير الصامت المزعج الرهيب الذي ترك بصمته على أفراد هذه

العائلة لقرون، وهو مِا جعله يصير إلى ما صار إليه. لم تكن آرائه تلك بحاجة إلى تعليق، ولا حتى مني أنا شخصيًا.

كانت كتبنا — تلك الكتب التي على مدار الأعوام الماضية شكلت قدرًا كبيرًا من الحضور الفعلي للأمور غير العقلانية — من المفترض أن تضحى على وفاقٍ تام مع ذلك الوهم الذي يسيطر على الأجواء. استغرقنا سويًا في قراءة هذه الكتب مثل "البنفسج والأزرق" لجريسيت، و"بيلفيجور" لميكيافيللي، و"الجنة والنار" لسويدنبورج، و"رحلة نيكولاس كليم تحت الأرض" لهولبرج، و"كشف المستور" لروبرت فلود وجين دا إنداجين ودو لا تشامبر، و"رحلة إلى الأفق الأزرق" لتيك، و"مدينة الشمس" لكامبانيلا. إلا أن العمل الذي كان مفضلًا بالنسبة لنا إصدارٌ صغير باسم "دليل المحققين" الذي أبدعه دومينيكان إيميريك دي جريون، حيث كانت هناك بضع فقرات عن "بومبيناس ميلا" — المستكشف العظيم — عن الآلهة الأفريقية القديمة (والآلهة المصرية التي كان يعكف عليها "أشر" مفكرًا لساعاتٍ طويلة). إلا أنه كان يجد متعته الكبرى في الاطلاع على كتاب قديم ومثير جدًا في الأدب القوطي بعنوان "دليل الكنيسة المفقودة".

لم يكن بإمكاني التوقف عن التفكير في الطقوس القاسية لهذا الكتاب وتأثيره المحتمل على صديقي المصاب بوسواس المرض الذي أخبرني في ليلة ما فجأة أن السيدة "مادلين" قد ماتت، ثم أبدى رغبته في الاحتفاظ بجثتها لمدة خمسة عشر يومًا (قبل أن يوردها مقامها الأخير) في أحد القباء الكثيرة التي تملأ قاع البيت بين الجدران الرئيسية. إلا أن السبب المنطقي لإقدامه على هذا التصرف لم يكن بإمكانه مغالبته عليه. كان قد وصل لقراره هذا (كما أخبرني) نظرًا لمرضها الغريب الذي أثار تساؤلات مريبة ومقلقة من أطبائها، وكذلك لأن مدافن العائلة لم تكن في مكانٍ قريبٍ يسمح له بنقلها إلى هناك. لا أنكر أني عندما تذكرت تلك المقابلة المشؤومة التي قابلني بها ذلك الرجل الذي صادفته على سُلّم البيت وأنا في طريقي لمغادرته لم تكن لدي رغبة في مقاومة حذري غير الطبيعي الكبير، الذي على الرغم من ذلك لا أشعر بأذى معه.

ساعدت صديقي – بطلب منه – في الإعداد لقبر أخته مؤقتًا. كان الجثمان داخل تابوت وضعناه نحن الاثنان بداخله وحدنا. كان القبو الذي وضعناها فيه (والذي ظل مقفولًا لزمنٍ طويل، إلا أن مصابيحنا نصف المضاءة سمحت لنا بتحسس خطواتنا خلاله بعض الشيء) صغيرًا، رطبًا، ولا وسيلة فيه لإدخال الضوء، ويقع على عمقٍ كبير أسفل ذلك الجزء من المبنى الذي فيه غرفة نومي. يبدو أن قبوًا كهذا كان يُستخدم إبّان العصور الإقطاعية؛ وأسوأ الاحتمالات

أنه كان يُستخدم كزنزانة، ثم تحول بعد ذلك كمكان لتخزين البارود أو أي مادة أخرى شديدة الانفجار، حيث كان جزء كبير من أرضية القبو ومدخل الممر الطويل الذي دخلنا إليه مغطى بالنحاس. أما بالخارج، فكان للقبو بابٌ حديدي ضخم يكفي لحمايته. يصدر عنه – نظرًا لثقله – صوتٌ حاد مزعج من مفصلاته.

وضعنا جثمان أخت صديقي على منصة في مكانٍ يعمّه الخوف، ثم غيّرنا وضعية الجثمان قليلًا داخل التابوت الذي تركناه غير مغلق بإحكام، ثم نظرنا إلى وجه المتوفاة. لأول مرة ألحظ هذا الشبه الكبير بين صديقي وشقيقته، ووجدته يتمتم ببعض الكلمات والأدعية التي علمت من خلالها – أو ربما هكذا خُيل إلي – أن صديقي وشقيقته كانا توأمًا وأن توافقًا وتناغمًا كبيرًا كان بينهما. لم تدم نظراتنا نحو الجثمان طويلًا حتى نتركها فيما هي فيه. ترك المرض الذي ماتت بسببه في ريعان شبابها، مثل كل أمراض الدنيا، آثاره عليها؛ فارتسم على صدرها ووجهها استحياءٌ خافت، وعلى شفتيها ابتسامة طويلة غريبة صارت أكثر رعبًا مع موتها. غيّرنا التابوت وأغلقنا عليها تابوتها الجديد، ثم أوصدنا الباب الحديدي، وخرج كلٌّ منا بالكاد من ذلك القبو الكئيب إلى غرفته الأقل كآبة، ولكن ما زالت غرفنا تعلوا هذا القبو.

والآن، وبعد مرور أيام من الحزن الأليم، بدا على صديقي تغيرًا واضحًا على سمات مرضه العقلي. تغير أسلوبه كليًا، حتى اهتماماته أهملها أو نسيها. كان يطوف بين غرفةٍ وأخرى في خطواتٍ متسارعة غير متوازنة لا هدف لها. تحول شحوبُ وجهه – لو أمكنني وصفه – إلى مسحة باهتة مروعة، ليس هذا فقط، حتى النور النابع من عينيه بدا منطفئًا تمامًا. لم تعد البحّة المعهودة في نبرته مسموعة على الإطلاق، وتحولت إلى ارتجاف – ربما من الخوف الشديد – صار هو السمة السائدة في نبرته. بالطبع كانت هناك أوقات كنت أفكّر ما إذا كان عقله المتهيج دائمًا مسكونًا بسرٍ كبير يحاول بشتى الطرق وبكل ما أوتي من شجاعة أن يبوح به. وفي أوقاتٍ أخرى كنت أضطر آسفًا إلى تحمّل تقلباته المجنونة، ففي بعض الأحيان أجده يحملق في الفراغ لساعات طويلة باهتمامٍ كبير، وكأنه يستمع إلى صوتٍ خيالي. لا عجب أن حالته تلك جعلت الرعب يدب في قلبي ويتملكني. شعرت بقشعريرة تتخلل روحي ببطءٍ تتسارع وتيرته شيئًا فشيئًا، وأحسست أن خيالاته التي ملأت رأسه بدأت تنتقل إليّ.

كان هذا الشعور يملؤني خصوصًا عندما كنت آوي لفراشي في قطعٍ متأخرٍ من الليل، بعد سبعة أو ثمانية أيامٍ من وضع السيدة "مادلين" في القبو، حينها كانت تلك الأحاسيس تهاجمني بكل قوة. جافاني النوم والوقت يمر أمّر وأمّر. حاولت جاهدًا فهم سبب عصبيتي التي بدأت في فرض سيطرتها عليّ. سعيت لتصديق أن أغلب ما أشعر به – إن لم يكن كله – كان نتاجًا لتأثير ذلك الأثاث الكئيب الذي يملأ أرجاء غرفتي؛ وخصوصًا تلك الستائر الداكنة الرثّة المتراقصة يمينًا

ويسارًا بفعل الزوبعات الهوائية، تتعثر ذهابًا وإيابًا أمام الجدران، وتصدر خشخشة خفيفة عندما تلامس ديكورات الفراش. ذهب كل تعبي ومجهودي هباءً؛ ثم داهمني ارتجافٌ ليس بإمكاني إخفاؤه، وشعرت بروحٍ شريرة جاثمة فوق قلبي بلا سبب على الإطلاق. حاولت جاهدًا إزاحة هذا الشعور عني، فوفعت جسمي فوق وسائد الفراش، وحدّقت نظري جديًا وسط ظلام الغرفة الدامس. طليت بجدية لا أعرف سببها، إلا أن روحًا غريزية دفعتني لسماع أصوات خافتة غير متناهية تعلو كلما سكت هزيز الرياح على فترات طويلة، لا أعرف مصدر تلك الأصوات. شعرت برعب شديد يسكُن فؤادي؛ خوفٌ أكاد لا أعرف مقداره، ولا أطيقه رغم ذلك. وضعت ملابسي على عجل (حيث شعرت أن لا نوم صار لازمًا تلك الليلة)، وجاهدت نفسي للخروج من تلك الحالة البائسة التي آل إليها أمري، فقمت وخطوت بسرعة ذهابًا وإيابًا داخل غرفتي.

لم تستمر حركتي داخل الغرفة على هذا المنوال إلا قليلًا، حتى ظهر ضوء من السُلّم المجاور لغرفتي، حتى عرفت أن مصدره هو صديقي "أشر". طرق برقة على باب الغرفة ثم دخل حاملًا مصباحه. بدا وجهه شاحبًا مصفرًا كالمعتاد، ولكن هذه المرة لاحظت مرحًا مجنونًا يسود عينيه وهستيريا مكبوحة بالكاد تعمّ سلوكه بالكامل. أفزعني محيّاه، ولكني أقبل بأي شيء يكسر هذه الوحدة التي تحملتها طويلًا، حتى أن شعرت بالراحة لوجوده معي.

ظلّت عيناي واقعتين عليه بضع لحظات من الصمت التام، ثم قال فجأةً:

– ألم تره؟ ألم تره بعد؟ انتظر! يجب أن تراه.

قتم ضوء المصباح في يده بعض الشيء وهو يتحدث، ثم هرع نحو نافذةٍ طويلة وفتح بابيها على مصرعيهما حتى تخللت العاصفة إلى الداخل.

كادت الرياح الغاضبة المتهورة التي اقتحمت الغرفة من الشباك أن ترفعنا إلى الأعلى. صحيح أنها كانت ليلة مضطربة، لكن لا شك أنها كانت جميلة جدًا أيضًا، تنماز عن باقي الليالي في رعبها وجمالها في نفس الوقت. هبّت علينا زوبعة قوية جدًا مصحوبة برياحٍ متكسرة متلاطمة عنيفة، حتى أن الغيوم الكثيفة جدًا (التي حاصرت أبراج البيت) لم تمنع تلك الرياح السريعة المملوءة بالحياة التي تلاطم بعضها البعض من كل اتجاه دون أن تذهب بعيدًا. أقول أنه على الرغم من كثافة الغيوم إلا أننا كنا قادرين على الرؤية، رغم عدم وجود ولو شعاع ضوء من القمر أو النجوم، ولا حتى بصيص نور يأتي من صاعقة في السماء. ولكن أسفل الغيوم الكثيفة الهائجة وأثاث الغرفة المحيط بنا ظهر ضوء لامع غير طبيعي مصحوب بزفير غازي مضيء بصوت ضعيف اكتنف البيت بالكامل وسكن أركانه كلها.

– لا تنظر! لا تعط بالًا!

هكذا قلت لصديقي بصوتٍ مرتعش، ثم أمسكت به برفقٍ حازم ودفعته بعيدًا عن النافذة وأجلسته على المقعد. وقلت له:

- هذه التجليات التي تحيّرك هي مجرد ظواهر كهربائية لا أكثر ولا أقل، وربما يكون مصدرها ذلك المستنقع الذي تقبع فيه بحيرتك. دعنا نغلق هذه النافذة، فالهواء بارد وخطر على صحتك. دعني أقرأ لك إحدى قصصك الرومانسية واسمعني جيدًا حتى تمر هذه الليلة المخيفة على كلينا على خير.

أمسكت بإصدارٍ قديم للقصة بعنوان "تريست المجنون" للسير "لانسيلوت كانينج"، ولكن وصفي للقصة بالمفضلة لدى صديقي "أشر" من باب المزاح المصحوب بالحزن لا من باب الجد، إلا أنه في الواقع كان في إسهابها الغريب غير المألوف شيءٌ ما قد يثير الاهتمام لدى المثالية الروحية الشامخة التي يتميز بها صديقي. إلا أن هذا الكتاب كان هو الكتاب الوحيد الذي التقطته يداي؛ حتى أني قد ملأني الأمل في أن تتسبب الإثارة التي ظهرت على محيّا صديقي المصاب بوسواس المرض في بعض الراحة له (حيث أن للاضطرابات العقلية ارتباط وثيق ببعض الحالات الغريبة كهذه) حتى ولو كان سببها تلك الحماقات التي على وشك أن أقرأها على مسمع صديقي. لو كان الأمر بيدي لكنت هنأت نفسي على نجاح خطتي، وخصوصًا بعدما وجدت صديقي يصغي - أو هكذا يهيأ إليّ - إلى كلمات القصة التي ألقيها عليه.

وصلت في قراءتي للقصة إلى النقطة التي فقد فيها بطل القصة "إيثيلريد" الأمل في دخول بيت ناسك الكنيسة بسلام، ثم بدأ في استخدام العنف. أتذكر حينها أن كلمات القصة جرت كما يلي:

"وإيثيلريد، ذو القلب الشجاع العظيم بفضل كؤوس الخمر التي احتساها، لم ينتظر طويلًا حتى يتحدث ويتناقش مع ناسك الكنيسة ذي الطبع الهادئ والعِند الشديد، والأمطار تتساقط على كتفيه، يخشى أن تزداد العاصفة سوءًا، ثم طرق بقوة شديدة على الباب بقضيب حديدي بيديه المغطتين بقفازين، ثم أخذ يسحب ما كسره من الباب بثبات. كسر ومزّق كل ما تطوله يداه ... مّزق كل شيءٍ إربًا، حتى أن صوت تكسير الخشب الجاف تردد صداه في أركان الغابة."

انطلق لساني بالحكي بعد هذه الجملة، ثم توقف فجأة بعدما تبين لي (على الرغم من أني اقتنعت بأن أوهامي الجيّاشة خدعتني) من ركنٍ بعيد في البيت صوتٌ لم تسمعه آذاني من قبل، كان شبيهًا لصوت طرق بطل القصة على الباب وتمزيقه للخشب (ولكنه صوت مخنوق ومُمل هذه المرة). ليس هناك شك لدي أن مصادفة سماع ذلك الصوت مع وصفه في القصة أثار انتباهي كثيرًا، إلا أنه وفي وسط أصوات خشخشة نوافذ الغرفة والأصوات المعتادة الصادرة عن العاصفة الآخذة في الازدياد بالخارج، لم يكن لذلك الصوت أي شيء يثير حفيظتي أو يقلقني، فأكملت الحكي:

"ولكـن البطـل الطيـب، إيثيلريـد، دخـل مـن البـاب أخيرًا، مملـوءًا بالغـضب، متعجبًـا مـن عـدم وجـود ناسـك الكنيـسة الخبيث، بل وجد مكانه تنينًا مريضًا ذا منظرٍ غريب ولسانٍ ناري جالسًا أمام قـصرٍ ذهبي على أرضيةٍ من الفـضة، وعلى الجـدار يتدلى درع نحاسي لامع مكتوب عليه:

من يدخل هنا يكن فاتحًا نافرًا،

ومن يقتل التنين كان بالدرع ظافرًا

رفع إيثيلريد قضيبه الحديدي ونزل بها ضربًا على رأس التنين حتى سقط أمامه وأخرج نفسًا عظيمًا وصرخةً مزعجةً قاسية، وضع إيثيلريد يديه على أذنيه من شدة فظاعتها، كان صوت التنين حقًا لا مثيل له."

هنا توقفت أيضًا فجأة، وقد ملأتني هذه المرة دهشة كبيرة — فلا شك أني في هذه المرة قد سمعت (على الرغم من استحالة سماع الصوت من الاتجاه الذي ظننته) صوتًا خافتًا بعيدًا، لكن في نفس الوقت كان صوتًا قاسيًا طويلًا يشبه الصريخ أو الصرير — فالصوت هذه المرة كان شبيهًا تمامًا بصرخة التنين التي سمعت صداها في عقلي وكما وصفها المؤلف.

أرهقني مجرد التفكير في وجود صوتٍ ثانٍ وتلك المصادفة الغريبة بآلاف المشاعر والأحاسيس المختلفة؛ أخطرهم كان الذهول والرعب. حاولت التشبت بتلابيب عقلي حتى آخر فرصة كي أتجنب

إثارة أية مشاعر لدى صديقي – ولو حتى بمجرد الملاحظة. لم أكن متأكدًا ما إذا قد سمع تلك الأصوات، إلا أني متأكد أن هناك تغيرًا قد وقع له خلال الدقائق القليلة الماضية. كان صديقي قبلها يجلس قبالتي، ولكن أدار مقعده شيئًا فشيئًا حتى صار وجهه مواجهًا لباب الغرفة، حتى أني لم أعد قادرًا على قراءة تقاسيم وجهه إلا قليلًا، إلا أنني رأيت شفتيه ترتعدان وكأنه يتمتم بأشياءٍ غير مسموعة. مالت رأسه على صدره، إلا أني عرفت أنه مازال مستيقظًا لا نائمًا بعدما رأيت عينيه القويتين مبصرتين ولمحت شيئًا منها. حتى حركة جسمه أيضًا شهدت اختلافًا، حيث كان ينتقل من جانبٍ إلى آخر في تمايلٍ رقيق ثابت منتظم. لاحظت كل تلك التغيرات ثم عدت من جديد إلى قصة السير "لانسيلوت" وأكملت حاكيًا:

"والآن، بعدما هرب البطل من غضب التنين الشديد، أثار الدرع النحاسي تفكيره، وأراد فكّ السحر الذي يحيط به، ثم أزال جثمان التنين من الطريق إليه، واقترب بشجاعة من أرضية القلعة الفضية التي كان الدرع معلقًا على جدارها، ثم تلكأ بهدوء، حتى سقط على الأرضية الفضية، وأحدث صوت رنينٍ هائل."

لم تكد تلك الكلمات تخرج من بين شفتيّ، إلا وأحسست بدرعٍ نحاسي – في لحظتها – يسقط بقوة على الأرضية الفضية. حينها فقط سمعت صدى صوت مميز، أجوف، رنّان، لكن مكتوم. تملكني التوتر

تمامًا، فهممت واقفًا، ولكن حركة "أشر" المتهزهزة لم تتأثر. اندفعت صوب مقعده، عيناه كانتا منكسرتين تمامًا أمامه، وطليعته متحجّرة لا حركة فيها. ولكن عندما وضعت يدي على كتفه، أحسست بقشعريرة تكتنف جسمه بالكامل، ثم ارتسمت ابتسامة صفراء على شفتيه المرتجفتين، وبدأ يتحدث بصوتٍ منخفض وتمتمةٍ متعجلة متسارعة، وكأنه لا يدري بوجودي. انحنيت بالقرب منه حتى أسمع كلماته الخفية التي يتمتم بها، ثم سمعته يقول:

– ألم تسمع؟ أجل، سمعت وتوارد إلى مسامعي. سمعت منذ دقائق طويلة طويلة عديدة، ساعات طويلة، أيام طويلة. إلا أني لم أجرؤ. يا لتعاستي! يا لبؤسي! لم أجرؤ، لم أجرؤ على الحديث. دفنّاها حية في قبرها! ألم أقل أن أحاسيسي فطنة؟ والآن أخبرك أني سمعت حركاتها الواهنة الأولى في قبرها الشاغر. سمعتهم، منذ أيامٍ طويلة طويلة، ولكني لم أجرؤ، لم أجرؤ على التحدث! والآن، الليلة، إيثيلريد، ها! ها! الذي كسر باب ناسك الكنيسة، وصرخة الموت التي أطلقها التنين، وضجّة الدرع الصاخبة، كان هذا صوت تمزيق تابوتها الخشبي، وصرير بوابة محبسها الحديدية، ومعاناتها وهي تسير على أرضية مدخل القبو المفروشة بالنحاس. أوه! إلى أين أطير؟ هل ستكون هنا حالًا؟ أليست تتعجل لومي على تسرعي؟ ألم أسمع صوت خطواتها على سُلّم البيت؟ ألست أميّز صوت ضربات قلبها الثقيل المرعب؟ رجل مجنون!

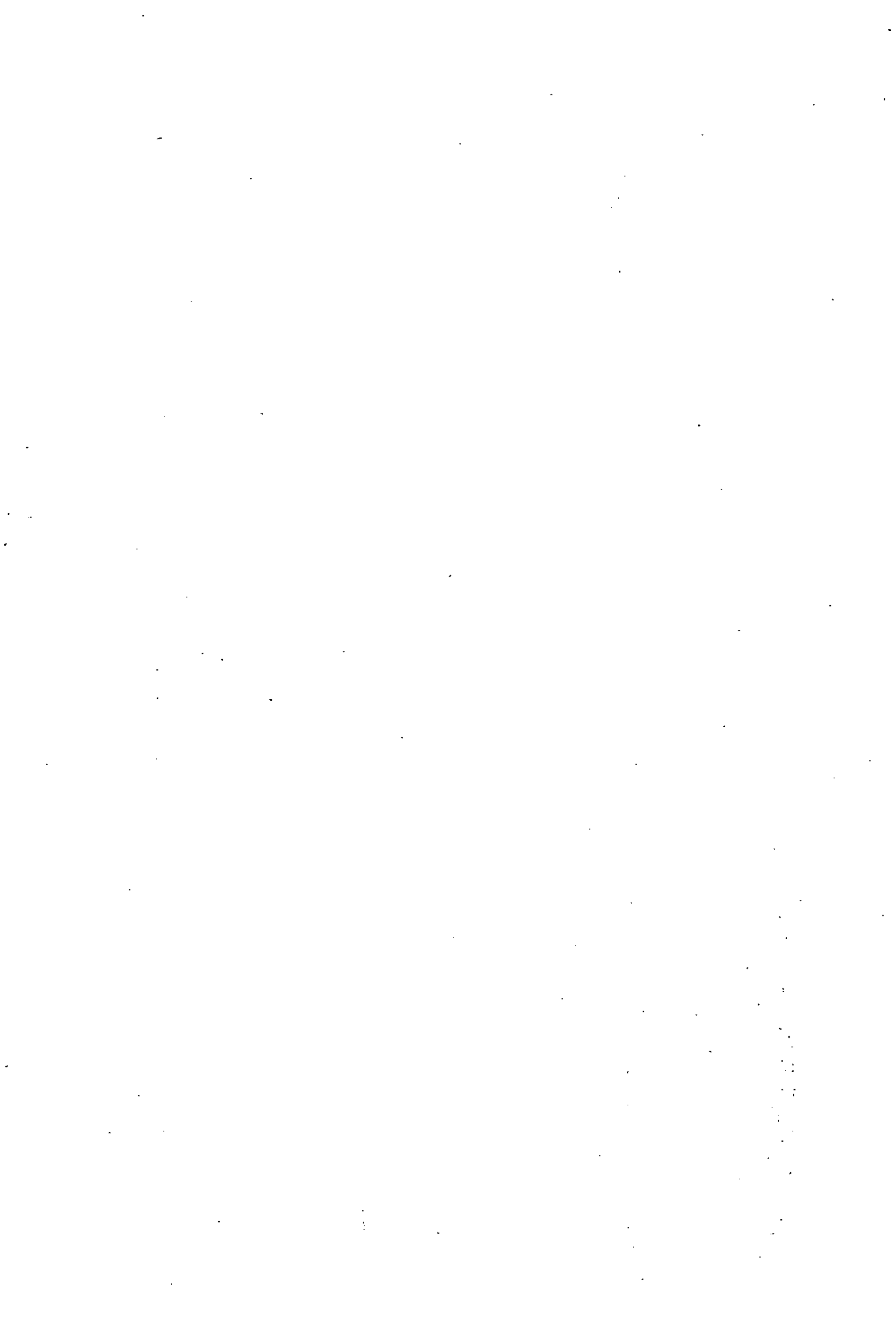
وقف "أشر" غاضبًا على قدميه وصرخ عاليًا كمن يسلم روحه أخيرًا وقال:

- رجلٌ مجنون! أؤكد لك الآن أنها واقفة خلف هذا الباب.

انطلقت كلماته مفعمة بطاقة خارقة وكأنه يلقي تعويذة، لدرجة أن اللوحات التي كان يشير إليها سقطت وحدها على الأرض بكل ثقلها. خرجت الكلمات من فمه وكأنها عاصفة عاتية، ولكن عندما توجهت أنظارنا نحو الباب، وجدنا جثمان السيدة "مادلين" واقفًا مكفنًا. ترتدي فستانًا أبيض تغطيه الدماء، ويبدو على جسمها الهزيل أثر معاناة مريرة. بقيت ترتجف للحظات وتعاني جيئةً وذهابًا على عتبة الباب، ثم أطلقت صرخة أنين منخفضة وانهالت على شقيقها. أذاقته من عنفها وآلام موتها الأخير، فسقط صريعًا على الأرض ضحيةً للرعب الذي ألقته عليه.

هربت مذعورًا خارج الغرفة ومنها إلى خارج البيت. كان العاصفة في أوجها وأنا أعبر الطريق القديمة، حتى داهمني ضوء قوي آت من نهاية الطريق، فاستدرت لأرى مصدر ذلك الضوء والبيت وظلاله وحدهم من خلفي. جاء الضوء من البدر في تمامه مكتسيًا بلونٍ أحمر دموي لامع بشدة يصدر من ذلك الشق في سقف البيت الذي لاحظته بالكاد لدى وصولي في البداية؛ شقٌ متعرج يصل إلى الأرض. حملقت في الشق وهو يزداد اتساعًا، ثم جاءت زوبعة عنيفة

فجّرت كرة القمر الصناعي أمام عيناي. اضطرب عقلي وأنا أرى جدران البيت العظيمة تتهاوى متهدمة، ثم صدر صوت صياحٍ عنيف جدًا كصوت بحرٍ عظيم، واقتربت مياه البحيرة العميقة الداكنة من قدميّ وغطّت ركام "بيت أشر" في صمت..



ورق الحائط الأصفر

تشارلوت بيركنز ستيتسون



من النادر جدًا أن يستأجر أناس عاديون للغاية مثل "جون" ومثلي حجراتٍ عتيقة لقضاء فصل الصيف.

بإمكاني أن أصف هذا المكان بالفندق الذي تعود أصوله إلى عهد المستعمرات، أو المسكن المتوارث عبر الأجيال، أو حتى البيت الملعون، ثم أصل إلى قمة البهجة الرومانسية، ولكن العاقبة لن تكون محمودةً على الإطلاق.

إلا أني سأظل مصرّة تمامًا على أن شيئًا ما غريب في هذا المكان.

أيضًا، لم يكن مكانٌ كهذا بهذا الزُهد؟ ولِمَ لم يستأجره أحد طوال هذه المدة؟

يسخر "جون" مني، ولكن هذا أمرٌ معتاد بين الأزواج.

"جون" رجل عملي لأبعد الحدود، لا يعرف الصبر أبدًا، ويخاف جدًا من الخرافات، ويتهكّم بكل صراحة على أي شيء لا تلمسه يداه ولا تراه عيناه ولا يُجسّد أمامه.

"جون" طبيب وربما (رغم أني لا أقول ذلك أبدًا لأي شخص بالطبع، ولكن هذا نوع من الفضفضة التي أرتاح بسببها) يكون هذا سبب لعدم شفائي بسرعة.

كما ترون، لا يصدق أني مريضة!

وماذا بيد المرء أن يفعل؟

إذا كان ذلك الطبيب ذو السمعة المحترمة، وزوجي، يؤكد للأصدقاء والأقارب أن لا مكروهًا أصابني إلا إكتئابًا عصبيًا مؤقتًا – مجرد نوبة هيستيرية – فماذا بيد المرء أن يفعل؟

أخي أيضًا طبيب ذو سمعة محترمة ... ويقول نفس الشيء.

لذا فإني أتعاطى شرابًا فوارًا أو "الفوسفيت" – أيهما كان – ومقويات، وأذهب في رحلات، وأستنشق الهواء، وأمارس الرياضة، وممنوعة تمامًا من "العمل" حتى تتحسن صحتي مجددًا.

أما عن نفسي، فإني غير راضية عن أفكارهم تمامًا.

عن نفسي، فإني أؤمن أن العمل الملائم المصحوب بالإثارة والتغيير سيجدي معي جيدًا.

ولكن، ماذا بيد المرء أن يفعل؟

كتبت لفترةٍ ما بدلًا منهم، ولكن هذا يتعبني جدًا، فإما أتصرف بخباثة معهم، وإما ألقى معارضة تامة منهم.

يُخيل لي في بعض الأحيان لو أن حالتي قد تتحسن لو قلت معارضتهم لي وأعطوني بعض الحرية والحافز الكافي، ولكن "جون" يقول أن أسوأ شيء هو أني أفكر في حالتي ... والصراحة أن تفكيري يجعلني أشعر بالسوء.

سأترك هذا الأمر وشأنه وأتحدث عن البيت بدلًا.

أجمل مكان على الإطلاق! مكان وحيد، بعيد بعض الشيء عن الطريق، وعلى بعد ثلاثة أميالٍ من القرية. يذكّرني بالأماكن الإنجليزية التي تقرأون عنها، حيث توجد هنا سياج وجدران وبوابات ذات أقفال، وأيضًا كثير من البيوت الصغيرة المنفصلة يسكنها المزارعون والناس.

توجد هنا حديقة "لذيذة"! لم أرَ في حياتي حديقة كهذه؛ كبيرة، ظليلة، مليئة بالطرق المربعة، وعلى جانبيها تعريشات طويلة من العنب أسفل منها مقاعد للجلوس.

كانت هناك مشاتل أيضًا، ولكن كلها خربة الآن.

كانت هناك مشكلة قانونية، شيء في اعتقادي مرتبط بالورثة والمشاركين في الميراث، على أي حال، فإن المكان ظل شاغرًا لأعوام.

لا يترك هذا فرصة لوحشتي. صحيح أني أخاف، ولكن لا أعطِ بالًا، فهناك أمرٌ غريب حيال هذا البيت – بإمكاني الشعور به.

حتى أن أخبرت "جون" بذلك في ليلةٍ قمرية، ولكنه أخبرني أن ما أشعر به هو مجرد "تيار هوائي"، ثم أغلق النافذة.

أتعارك مع "جون" بصورةٍ غير معقولة في بعض الأحيان. أنا متأكدة أني غير معتادة على أن أكون حسّاسة جدًا، ولكن أعتقد أن هذا ربما بسبب هذه الحالة العصبية.

ولكن "جون" يقول أني لو شعرت بهذا، فعليّ أن أتخلى عن ضبط النفس المناسب؛ لذا فإني أتحكم في نفسي من باب الألم – أمامه على الأقل – وهذا ما يتعبني حقًا.

لا تعجبني غرفتنا على الإطلاق. أردت الغرفة بالأسفل؛ تلك التي تطل على الساحة وبها ورود تزيد النافذة بالكامل، هذا غير قماش قطني مطبوع قديم الطراز جميل معلّق. ولكن "جون" لم يسمع لي.

قال أن تلك الغرفة بها نافذة واحدة فقط وأنها غير مناسبة لفراشين، وحتى أن لا ثمة غرفة أخرى قريبة له إذا أرادها.

"جون" معتنٍ وعطوف جدًا ولا يترك لي أدنى فرصة للتصرف من دون أوامره.

لدي جدول علاج لكل ساعة في اليوم؛ وهو يهتم بي جدًا، لذا فإني سأشعر بعدم العرفان بالجميل لو لم أقدّر ما فعله أكثر.

قال أننا جئنا إلى هنا وحدنا منْ أجلي أنا، لأني في حاجة لراحةٍ وهواءٍ أكثر. قال لي:

– رياضتك تعتمد على قوتك يا حبيبتي.

وقال أيضًا:

– وطعامك أيضًا يعتمد على شهيتك، ولكن الأهم هو الهواء الذي تستنشقيه طول الوقت، لذا فقد أخذنا الغرفة أعلى البيت.

غرفة كبيرة، جيدة التهوية، ذات أرضيةٍ كاملة ونوافذ تطل على كل اتجاه، يدخلها الهواء والشمس بوفرة. كانت الغرفة في البداية غرفة أطفال، ثم تحولت إلى غرفة لعب وصالة ألعاب رياضية؛ هذا انطباعي لأن النوافذ لا تطولها أيدي الأطفال الصغار، وهناك أيضًا حلقات وأشياء على الجدران.

يبدو الدهان وورق الحائط وكأن أطفال المدارس استخدموها. ورق الحائط منزوع في أغلب الأجزاء المحيطة برأس فراشي إلى أبعد ما قد أصل إليه، ومنزوع أيضًا في جزء كبير من الناحية الأخرى من الغرفة بالأسفل قليلًا. لم أرَ ورق حائط بهذا السوء في حياتي.

ترتسم على الجدران أنماطٍ مزخرفة مترامية الأطراف تستفز الحواس الفنية.

المنظر ممل يثير الحيرة في أعين الناظر، وواضح جدًا لدرجة تثير الأعصاب وتحرّض على تفحّصه. عندما تتبع تلك الثنايا المملة غير الدقيقة على مسافةٍ قصيرة، تجدها انتهت وغرقت في زوايا فظيعة، وتتحطم في بحرٍ من التناقضات.

اللون منفّر؛ يكاد يكون مثيرًا للاشمئزاز ... لونٌ أصفر مختنق غير نظيف يظله بغرابة ضوءٌ شمسي بطيء الحركة.

يميل اللون إلى البرتقالي الصاخب رغم بروده في بعض المناطق، ثم يتحول إلى لونٍ كبريتي مقيت في مناطق أخرى.

لا عجب أن الأطفال كرهوه! حتى أنا سأكرهه إن كُتب عليّ العيش في هذه الغرفة طويلًا.

دخل "جون" الغرفة وعليّ أن أتخلص من هذه الأفكار سريعًا ... فإنه يكره أن يراني أكتب ولو كلمة.

***

مضى على مكوثنا هنا أسبوعان كاملان؛ ولم أشعر بالرغبة في الكتابة منذ اليوم الأول.

أجلس الآن بالقرب من النافذة في الطابق العلوي داخل هذه الحضانة الفظيعة، ولا شيء يعيق كتابتي بقدر ما أحب، إلا قلة حيلتي.

يغيب "جون" عني طول اليوم، وحتى في بعض الليالي عندما تكون لديه حالات خطيرة.

أنا سعيدة بأن حالتي ليست خطيرة!

ولكن تلك المشكلات العصبية كئيبة لدرجة مخيفة.

لا يقدّر "جون" معاناتي حق قدرها، ويعتقد بأنه لا سببَ هناك لمعاناتي ... وهذا يرضيه.

بالفعل كل ما أعاني منه هو العصبية، ولكنها تمارس ضغوطها عليّ حتى تمنعني من أداء واجباتي.

أريد أن أمد يد العون لـــ"جون" حتى يحصل على قدرٍ من الراحة والاسترخاء، ولكن ها أنا هنا حملٌ ثقيل عليه.

لا يصدّق أحد قدر المجهود الذي أبذله في أتفه الأمور ... حتى وأنا أرتدي ملابسي، وأنا أستضيف الناس، وأنا أرتّب الأشياء.

لحسن الحظ أن "ماري" تجيد معاملة ابني الرضيع ... ابني المحبّوب!

ولكن ليس بإمكاني أن أكون معه ... وهذا يثير عصبيتي.

أعتقد أن "جون" لم يكن عصبيًا قط في حياته. إنه يهزأ بيّ حيال ورق الحائط هذا.

في البداية كان يريد تعليق ورق حائط جديد، ولكن لاحقًا قال أن الورق القديم سيساعد في تحسّن حالتي.. لكن هذا أسوأ ما قد يحدث لمريضٍ عصبي ... أن تطلق العنان لخيالاته.

قال أن ورق الحائط لو تغيّر، سنضطر لتغيير الفراش، ثم النوافذ ذات القضبان الحديدية، ثم البوابة على رأس الدرج، وهكذا.

قال لي: "أنتِ تعلمين أن المكان مناسب لكِ ... ولا يهمني، حبيبتي، أن أجدد البيت لمجرد إقامة لن تطول أكثر من ثلاثة شهور".

وعندما قلت له: "إذًا دعنا نبيت بالأسفل، هناك غرف جميلة جدًا هناك"، أخذني بين أحضانه وقال لي "يا وزتي الصغيرة الرقيقة، مستعد للانتقال إلى الأسفل حسب رغبتك وتنظيفه أيضًا تمامًا"،

ولكنه محق فعلًا فيما يخص الأفرشة والنوافذ والأشياء.

إنها غرفة مريحة جيدة التهوية يتمناها أي شخص، هذا غير أني بالطبع لن أكون سخيفة لدرجة خلق مشكلة لمجرد رغبة عابرة.

أصبحت فعلًا معجبة بالغرفة الكبيرة، إلا ورق الحائط البشع هذا.

من النافذة بإمكاني أن أرى الحديقة، والتعريشات المظللة جيدًا، والزهور القديمة الصاخبة،والشجيرات الصغيرة، والأشجار المتشابكة.

وتطل نافذة أخرى على منظر بديع للخليج ورصيف ميناء ينتمي للمكان. هناك أيضًا زقاق جميل ظليل يبدأ من خارج المترل مباشرةً.

أتخيل دومًا رؤية أناس يمشون في تلك الطرقات والأزقة الكثيرة، ولكن حذرني "جون" من إطلاق العنان لخيالات مثل هذه. يقول أن قدراتي التخيّلية والاعتياد على تأليف القصص مع ضعفي العصبي سيؤدون جميعًا إلى خيالاتٍ صاخبة، ومن أجل ذلك يجب أن أتحكم بنفسي بالابتعاد عن هذا الميل ... لذا فإني أحاول.

أفكّر في بعض الأحيان أني لو كنت سليمة للدرجة الكافية التي تجعلني أكتب – ولو قليلًا – فإن هذا سيقلل من ضغط تلك الأفكار وسيريحني كثيرًا.

ولكني اكتشفت أني أتعب كثيرًا عندما أحاول.

يثبّط همتي كثيرًا ألّا أجد أي نصيحة أو مشاركة بخصوص عملي. عندما تتحسن حالتي يقول لي "جون": "سنطلب من جورج وجوليا أبناء عمنا القدوم للمكوث معنا لمدة طويلة" ولكنه يقول أيضًا أنه سيضع ألعابًا نارية في وسادتي حتى يزداد الحافز عندي في الحال".

أتمنى أن أُشفى سريعًا ...

ولكن يجب ألّا أفكر في ذلك.

ورق الحائط هذا ينظر إليّ وكأنه يعلم أثره السيء الذي يتركه في نفسي.

هناك بقعة دائمة يتدلّى منها الإطار وكأنه رقبة مكسورة وعينين بصليتين تحملق فيّ من الأعلى إلى الأسفل.

شعرت بخنقٍ شديد لمدى وقاحة هذه البقعة واستمرارها على هذا الحال. تتدلّى العينان من الأعلى إلى الأسفل وعلى الجانبين ... عينان سخيفتان لا ترمشان تظهران في كل مكان. هناك مكان بعينه في الجدار لا يوجد فيه شيئان متماثلان؛ حتى العينين تتدليان من الأعلى إلى الأسفل فقط بمحاذاته، وكل حركة أكبر من أختها ... هنا في هذا المكان فقط.

لم أرَ حركةً كهذه من قبل في شيءٍ جامد ... والأشياء الجامدة لا حركة فيها من الأساس كما نعرف جميعًا. اعتدت أن أستلقي وأنا مستيقظة كطفلة صغيرة أتسلى وأخاف من منظر الجدران الفارغة وقطع الأثاث البسيطة أكثر مما يخاف طفلٌ صغير من دميته.

أتذكر تلك "الغمزة" الرقيقة التي كنت أراها في مقابض مكتبنا الكبير القديم ... حتى أن هناك مقعد واحد كان يبد كصديقٍ قوي.

اعتدت دومًا أن أتخيل لو بدا لي بعض أشياء الغرفة مخيفًا فإني سأقفز نحو ذلك المقعد كي أحتمي به.

أما في هذه الغرفة فالأثاث غير متناسق تمامًا، إلا أن هذا بسبب أننا اضطررنا لحمله من الطابق السفلي. أعتقد أن هذه الغرفة عندما كانت مخصصة للألعاب كان القائمون على المكان يخرجون أشياء

الحضانة ... ولا عجب في ذلك! فلم أرَ قط إتلافًا مثل الذي فعله هؤلاء الأطفال هنا.

كان ورق الحائط – كما قلت مسبقًا – ممزقًا ومتناثرًا بين بقعة وأخرى، حتى أنه قريب مني للغاية ... أقرب إليّ من أي شيء آخر، يبدو أن من سكن المكان من قبل كان محافظًا مملوءًا بالكراهية أيضًا.

حتى أن الأرضية ممزقة ومحفورة ومتشققة. كان مشمّع الأرضية نفسه مليئًا بالحفرات. لم نجد في الغرفة إلا هذا الفراش الثقيل الضخم، ويبدو وكأنه ذاق الويلات من قبل.

– ولكني لا أهتم بالفراش كثيرًا ... فقط ورق الحائط.

جاءت شقيقة "جون" ... فتاة لطيفة تعتني بي كثيرًا.

يجب ألا تراني وأنا أكتب.

شقيقة "جون" مدبرة مترل رائعة وحماسية ولا تريد أي وظيفة أفضل من هذه. أنا متأكدة من أنها تعتقد أن الكتابة هي التي جعلتني أمرض.

ولكني أكتب عندما لا تكون هنا وأراها ترحل بعيدًا من نافذتي.

هناك نافذة تطل على الطريق.. طريق ظليل ملتوي، ونافذة أخرى تطل على الريف.. ريف لطيف يمتلئ بأشجار الدردار والمروج المخملية.

لم يكن ورق الحائط ملصوقًا في إطار كامل، ولكنه كان مستفزًا للغاية؛ بحيث يمكن رؤيته في أضواء بعينها ... وحتى في هذه الحالة لا أراه كاملًا.

ولكن في أماكن أخرى منه لا يبدو باهتًا حيث تطل عليه آشعة الشمس ... حينها فقط أرى شكلًا غريبًا مستفزًا لا صورة له يتوارى خلف التصميم السخيف الواضح.

ها هي شقيقة "جون" ... تصعد درج البيت!

***

انتهى يوم الرابع من يوليو ... ذهب الناس وأنا مرهقة جدًا. رأى "جون" أنه من الجيد لي أن أحصل على بعض الصحبة؛ ولذا جاءتنا أمي و"نيللي" والأطفال ومكثوا لدينا لمدة أسبوع.

لم أفعل شيئًا بالطبع ... لأن "جيني" تقوم بكل شيء الآن.

ولكني شعرت بالإرهاق أيضًا.

قال "جون" إن لم تتحسن حالتي بسرعة سيرسلني إلى الطبيب "وير ميتشيل" في الشتاء.

ولكني لا أريد الذهاب أبدًا ... كان لدي صديقة تحت إشرافه وتقول أن الطبيب مثل "جون" وشقيقي تمامًا ... بل أكثر نوعًا ما.

بالإضافة إلى ذلك، ستكون مهمة صعبة أن أذهب بعيدًا هكذا.

أشعر بأن الأمر لا يستحق أن أبقى ولا أفعل شيئًا أبدًا ... حيث أبدو بوجهٍ عبوس معاتب بصورة مخيفة.

أبكى بلا سبب ... أغلب الوقت.

لا أبكى بالطبع عندما يكون "جون" أو أي شخص آخر هنا ... فقط وأنا وحدي.

أشعر أني وحدي الآن؛ حيث يبقى "جون" كثيرًا في المدينة مشغولًا بحالاته الخطيرة، و"جيني" جيدة وتتركني وحدي عندما أطلب منها ذلك.

لذا تمشّيت قليلًا في الحديقة بالقرب من ذلك الطريق اللطيف، وجلست على الرواق أسفل الزهور، واستلقيت بعض الشيء.

بدأت أولع بالغرفة بالفعل على الرغم من ورق الحائط ... ربما بسبب ورق الحائط نفسه.

يبدو أنه يسكن عقلي!

أستلق هنا على هذا الفراش الكبير المثبت ... بالمسامير على ما أعتقد ... وأتابع النمط المرسوم على ورق الحائط بمرور الوقت. الأمر جيد وكأني في صالة ألعاب رياضية ... أؤكد لكم. سأقول أني بدأت من الركن السفلي الذي لم يلمسه أحد، ثم قررت أني لن أتوقف حتى أصل إلى نهاية هذا النمط الغريب.

أعرف القليل عن التصميم، ولكني أعرف أن هذا الشيء ليس مرتبًا على الإطلاق ... فلا هو منظم ولا مرتب ولا مهندم ولا أي شيئ آخر سمعت عنه في حياتي.

مجرد نمط يعيد نفسه بالعرض لا بأي شكل آخر

عندما أنظر إليه أرى كل جزء وكأنه منفصل عن الآخر. تلك الانحناءات المنتفخة المزخرفة – وكأنها نوع من "الرومانسية العفنة" المصحوبة بـــ"الهذيان الارتعاشي" – تتهادى بالأعلى وبالأسفل في حماقة.

ولكن من ناحية أخرى، تتواصل الانحناءات في إطار منحرف، والخطوط العريضة مترامية الأطراف تجري في موجات هائلة مائلة مرعبة وكأنها أعشاب بحرية متلاطمة تجري خلف بعضها البعض.

يجري النمط بالكامل أفقيًا – أو هكذا يبدو – لأني أرهقت نفسي في محاولة تمييز اتجاهها.

يتميز ورق الحائط بنمط أفقي مزخرف يزيد من ارتباك المشهد كثيرًا.

هناك ركن بعيد في الغرفة يبدو غير ملموس أبدًا، وهناك يضعف النور ولا يرى هذا الركن إلا شعاع ضوء شمسي ضعيف يُسلط مباشرة عليه. أحب الإشعاع كثيرًا رغم ذلك، فهناك بشاعة لا تُحتمل تتشكل رويدًا رويدًا في المنتصف وتندفع بتهوّر يثير الارتباك.

تعبت كثيرًا وأن أتبع هذا النمط ... الآن سآخذ قيلولة على ما أعتقد.

***

لا أعرف لَم يجب أن أكتب هذا ...

لا أريد ...

لا أقدر ...

وأعلم أن "جون" سيعتقد أن المقويات وأشياء أخرى هي السبب ... لن يتكلم عن البيرة والنبيذ واللحم غير المطهوّ جيدًا.

حبيبي "جون"! إنه يحبني كثيرًا ويكره أن يراني في حالة إعياء. حاولت أن أحدّثه بالعقل في اليوم التالي وأخبره كم أتمنى أن يتركني أذهب لزيارة ابن عمي "هنري" و"جوليا".

ولكنه قال أني غير قادرة ولن أتحمّل الذهاب إلى هناك ... حتى أني لم أقدر على الدفاع عن نفسي لأني انخرطت في البكاء قبل أن أنهي حديثي.

صار صعب عليّ جدًا أن أفكّر بصورة حسنة ... أعتقد أن السبب هو ضعفي العصبي.

ولكن حبيبي "جون" أخذني بين ذراعيه وحملني إلى الأعلى ووضعني على الفراش وجلس بجواري وأخذ يقرأ لي حتى تعب رأسي.

قال أني حبيبته ومكمن راحته وكل ما يملك وأني يجب أن أعتني بنفسي أكثر من أجله وأن أبقى على ما يُرام.

قال أن لا أحد سيساعدني للخروج من حالتي أكثر من نفسي وأني يجب أن أعتمد على عزيمتي وتحكمي بنفسي ولا أدع تلك الخيالات السخيفة تتحكم فيني.

الأمر الذي يريحني أكثر أن طفلي الرضيع بخير وسعيد ... ولا يجب أن يسكن هذه الحضانة في ظل وجود ورق الحائط البشع هذا.

لو لم نأخذ هذه الغرفة لأخذها طفلي الحبيب! يا لترتيب القدر! لولا ذلك لكان طفلي الحبيب بعيدًا عني في هذه الغرفة.

لم أفكّر في الأمر من قبل، ولكن لحسن الحظ أن "جون" أبقاني هنا ... بإمكاني تحمل هذه الغرفة بدلًا من طفلي.

لم أقل هذا من قبل لهم ولن أفعل بالطبع – أنا حكيمة جدًا – ولكن تبقى عيناي منصبتان على ورق الحائط هذا.

هناك شيء في ورق الحائط لا أحد يعلمه غيري، ولن يعلمه غيري.

خلف هذا النمط الخارجي تصبح الأشكال الباهتة أكثر وضوحًا كل يوم.

صحيح أنه نفس الشكل ... ولكن تختلف تفاصيله كل يوم.

بدأ يبدو وكأنه امرأة تنحني وتنسلّ خلف ورق الحائط. لا أحب هذا الشكل أبدًا. يُخيل لي – بدأت أفكّر – أني أتمنى لو يأخذني "جون" من هنا.

***

من الصعب أن أتكلم معه عن حالتي لأنه حكيم جدًا، ولأنه يحبني جدًا أيضًا.

ولكني جربت حظوظي ليلة أمس.

كانت ليلة قمرية لمع فيها القمر في قلب السماء وكأنه شمس في نهارها.

أكره رؤية القمر أحيانًا، يجعلني أشعر بالقشعريرة شيئًا فشيئًا ... ثم يظهر لي من إحدى نوافذي.

كان "جون" نائمًا ولا أحب أن أوقظه ... لذا ظللت مستيقظة أشاهد نور القمر يتعكس على ورق الحائط المتموج حتى أصابتني القشعريرة.

بدا الشكل الباهت وكأنه يهز ورق الحائط من الخلف ... وكأنه يريد الخروج.

اعتدلت برفق وذهبت لأحس وأرى ما إذا كان ورق الحائط يتحرك فعلًا أم لا ... وعندما عدت كان "جون" قد استيقظ. قال:

– ماذا بكِ طفلتي الصغيرة؟ لا تمشي هكذا ... ستصابين بالبرد.

ظننت أن هذا الوقت مناسب للحديث، فأخبرته أن المكان لا يناسبني، وأني أتمنى لو نرحل من هنا.

– لماذا حبيبتي؟ الإيجار مازال مستمرًا لثلاثة أسابيع ولا أرى سببًا لرحيلنا قبل انتهاء المدة.

أكمل قائلًا:

– مازالت هناك ترميمات جارية في بيتنا وليس بالإمكان أن أترك المدينة الآن. لو كنتِ في خطر فعلًا لكنّا رحلنا بالطبع، ولكنكِ صرتِ أفضل حبيبتي، سواء كنتِ ترين هذا أم لا. أنا طبيب يا حبيبتي وأعلم هذا. لقد صارت بشرتك أكثر احمرارًا والدموية تجري في عروقك، صارت شهيتك أفضل ... هذا المكان أفضل لك بكثير.

– أنا لا أتحمل المكان ... ليس أكثر مما تحملته سابقًا. صحيح أن شهيتي صارت أفضل، ولكن هذا فقط في المساء عندما تكون هنا ... ولكن الأمر أسوأ في الصباح عندما تغيب عني.

احتضنني وقال: "يا لقلبك الحنون! تكونين مريضة فقط عندما تودين ... دعينا الآن نستغل هذه الفرصة وننام لنكمل حديثنا في الصباح".

سألته بحزن: "ألن ترحل؟" فقال: "لِمَ؟ كيف بمقدوري هذا يا حبيبتي؟ فقط ثلاثة أسابيع ثم سننطلق في رحلة لبضعة أيام حتى تجهز "جيني" البيت ... صدقيني حبيبتي أنتِ أفضل!".

– ربما جسمانيًا ...

توقف كلامي فجأة حتى اعتدل "جون" ونظر لي بصرامة وكأنه يوبخني ....ثم سكت الكلام.

قال: "حبيبتي، أرجوكي، لأجلي ولأجل طفلنا ولأجلك أيضًا، عديني ألا تسمحي بهذه الأفكار أن تدخل رأسك. لا شيء أخطر ولا أروع ولا ألطف منك. هذه مجرد أفكار خاطئة حمقاء ... هل تثقين في كلامي كطبيب عندما أقول لك هذا؟"

لم أنطق ببنت شفه في هذا الموضوع ... فاستغرقنا في النوم. ظنّ في البداية أني نائمة، ولكني لم أنم. ظللت مستلقية لساعات أحاول أن أفهم ما إذا كان ورق الحائط يتحرك بكتلته كلها أم فقط جزء منه.

***

في النهار لا يبدو نمط ورق الحائط متتابعًا ... يبدو خاليًا من أي نقطة نظام ... يبدو مهتزًا غير ثابت كما يراه أي شخص عاقل.

اللون بشع كفاية، خدّاع كفاية، مستفز كفاية، ولكن النمط نفسه يعذب النفس.

يبدو لك للوهلة الأولى أنك تمكنت منه، ولكن عندما تنتقل للنمط الذي بعده يتغير حاله، وهكذا يمضي الأمر. يصفعك على وجهك، ويسقطك أرضًا، ويمرغك في التراب ... كأنه كابوس.

النمط الخارجي في شكل أرابيسك زهري.. يذكّرني بالفطر. تخيّل مجموعة من الفطريات المتشابكة ... سلسلة لا تنتهي من الفطريات تتكاثر وتنتشر باضطراب عنيف لا ينتهي ... كان النمط بهذا الشكل.

يحدث هذا أحيانًا!

هناك شيء غريب في ورق الحائط هذا.. شيء ربما لا يلحظه أحد غيري ... وهو أنه يتغير كلما تغير الضوء.

عندما تقتحم الشمس من النافذة الشرقية – دومًا أشاهد هذا الشعاع الأول الطويل المباشر – يتغير ورق الحائط بسرعة لا أتخيلها.

لهذا السبب أشاهد هذا الشعاع دومًا.

وفي الليالي القمرية – حينما يلمع نور القمر ليلًا – لا أعلم ما إذا كان ورق الحائط هو نفسه.

في الليل، وعندما يُسلط على ورق الحائط أي نور آخر؛ سواء كان نور الشفق، أو الشمع، أو المصباح، أو الأسوأ من ذلك ... نور القمر ... حينها يتحول نمط ورق الحائط إلى شرائط وقضبان. أعني بذلك الإطار الخارجي، ولكن المرأة الواقفة خلفه تظل واضحة كما هي.

لم أفهم – ولمدة طويلة – كينونة هذا الشيء الذي يقف خلف ورق الحائط .. هذا الشيء الباهت ... ولكني أعرف الآن أنه امرأة.

تخفت صورتها نهارًا بعض الشيء. يعجبني أن هذا النمط يبقيها ثابتة كما هي. ولكن الأمر محيّر ... أبقى هادئة بسببه.

الآن أستلقي كثيرًا، ويخبرني "جون" أن هذا جيدٌ لي ... ويخبرني أن أنام بقدر ما أستطيع.

بدأ هذا الروتين بالطبع عندما جعلني أستلقي لمدة ساعة كاملة بعد كل وجبة.

إنه روتين سيء جدًا في رأيي، لأني – كما ترون – لا أنام.

وهذا يجعلني أكثر كذبًا لأني لا أخبرهم بأني مستيقظة ... أوه، لا!

الحق يُقال أني بدأت أخف قليلًا من "جون".

في بعض الأحيان يبدو غريبًا ... حتى "جيني" تبدو غير مفهومة في ملامحها.

يداهمني هذا الشعور بين الحين والآخر ... ولكني أفترض أن السبب هو ورق الحائط.

شاهدت "جون" بينما لم يكن يعلم أني أراقبه، ثم دخلت إلى الغرفة فجأة بعذرٍ بريء، وفي مراتٍ عديدة كنت أجده متلبسًا بالنظر إلى ورق الحائط ذاك ... وكذلك وجدت "جيني" ... وجدها تضع يديها عليه مرةً.

لم تكن تعلم أني بالغرفة، وعندما سألتها بصوتٍ خافت ... صوت خافت جدًا ... وبأسلوب مؤدب جدًا عمّا كانت تفعله عند ورق الحائط، التفت ناحيتي وكأنها لص قُبض عليه متلبسًا بسرقته وبدا عليها الغضب كثيرًا ... ثم سألت لمَ أخيفها بهذا الشكل.

قالت أن ورق الحائط يوسّخ كل شيء يلمسه، وأنها وجدت بقعًا صفراء على كل ملابسها وملابس "جون" كذلك، وتمنت لو أصبحنا أكثر حرصًا من ذلك.

ألا يبدو هذا من دافع طيبة قلبها؟ ولكني أعلمن أنها كانت تدرس ورق الحائط ذاك، وأنا مصرّة ألا يعلم أحدهم سره قبلي.

***

صارت الحياة أكثر إثارة الآن من أي وقتٍ سبق. كما ترون فإن لدي الآن أمر أتوقع حدوثه ... أمر أترقبه. الآن صرت آكل أفضل، بل وصرت أكثر هدوءًا مما كنت.

إن "جون" سعيد جدًا لرؤيتي أتحسن! ضحك قليلًا يومها وقال أني أتحسن فعلًا رغم وجود ورق الحائط ذاك.

رددت عليه بضحكة، فلست أنوي إخباره أن السبب في تحسن حالتي هو ورق الحائط نفسه، وإلا سيتهزئ بي.. حتى أنه قد يبعدني عنه.

لا أريد أن أرحل الآن حتى أكتشف الأمر. مازال أمامي أسبوع واحد ... أظن أنه كاف.

***

لم أشعر من قبل بهذا التحسن! لا أنام كثيرًا بالليل لأني أمتلئ بالإثارة لرؤية التغيرات التي تكتنف ورق الحائط ... ولكني أستغرق في النوم كثيرًا بالنهار.

أشعر بالتعب والإرهاق بالنهار.

هناك دائمًا أشكال جديدة من الفطر على ورق الحائط وظلال جديدة أيضًا مصفرة في كل أركانه. لم يعد بإمكان عدّ تلك البقاع ... إلا أنني حاولت من قبل بيني وبين نفسي.

هذا أغرب لون أصفر رأيته في حياتي ... هذا اللون الذي يغطي ورق الحائط الآن. يجعلني أفكّر في كل الأشياء الصفراء التي رأيتها في حياتي ... ولكنها ليست أشياء جميلة كالزهور الصفراء، بل أمور قبيحة سيئة قديمة صفراء اللون.

ولكن ثمة شيء آخر يكتنف ورق الحائط.. رائحته! لاحظت رائحته لحظة أن دخلنا الغرفة أول مرة، ولكن مع ورود الشمس والهواء لم تكن الرائحة سيئة. ولكننا الآن في وسط أسبوعٍ من الضباب والأمطار، وسواء كانت النوافذ مفتوحة أم مقفولة فإن الرائحة موجودة.

الرائحة تعمّ البيت كله.

وجدت الرائحة تحوم بغرفة الطعام، وتتوارى في الدرهة، وتنتظرني على درج البيت.

إنها تطول شعري.

حتى عندما أتنزه، ألّف رأسي فجأة إلى الخلف وأجد الرائحة حاضرة!

رائحة غريبة قضيت ساعات أحاول فهمها، أحاول معرفة ما هذه الرائحة.

لم تكن رائحة كريهة في البداية، بل لطيفة جدًا، ولكنها أكثر رائحة زقيقة ومستمرة شممتها في حياتي.

والآن في وسط هذا الجو الرطب صارت الرائحة فظيعة.. استيقظت في الليل ووجدت الرائحة تكتنفني بالكامل.

كانت تضايقني في البداية، حتى أنّي فكرت في حرق البيت جديًا.. حتى أصل لمصدر هذه الرائحة.

ولكني اعتدت عليها الآن، والشيء الوحيد الذي أفكر فيه الآن حيالها هو أنها تشبه لون ورق الحائط، رائحة صفراء!

هناك علامة غريبة جدًا على هذا الحائط بالأسفل جدا ناحية حافته خطٌ يجري حول الغرفة، خلف كل قطعة أثاث، فيماعدا الفراش ... خط طويل مستقيم محكوك كثيرًا.

تُرى كيف صار هكذا؟ ومن وضعه؟ وماذا فعل من قبل؟ الخط يلتف ويلتف ويلتف ويلتف ويلتف كثيرًا.. يصيبني بالدوار.

اكتشفت شيئًا أخيرًا في نهاية المطاف..

تابعت ورق الحائط مساءً عندما تغيّر شكله.. حينها اكتشفت شيئًا.

النمط الخارجي يتحرك بالفعل، ولا عجب! المرأة الواقفة خلفه تحركه بالفعل.

أحيانًا أظن أن هناك نسوة كُثُر خلف ورق الحائط، وأحيانا أظنها امرأة واحدة فقط، تزحف بسرعة، وزحفها هذا يهز ورق الحائط.

ولكن المرأة تبقى ثابتة في مكانها في أكثر الأماكن وضوحًا.. أما في أكثر الأماكن غموضًا أراها تمسك بالأعمدة والشرائط وتهزّهم بشدة.

أراها تحاول التسلق طول الوقت، ولكن لا أحد يقدر على تسلق هذا النمط لأنها حبيسة خلفه، ولهذا كان للنمط رؤوس كثيرة.

تحاول النساء الخروج ولكن النمط يغلق على رؤوسهن ويخنقهن ويقلبهن رأسًا على عقب حتى تتحول أعينهن إلى بيضاء.

لو غُطيت تلك الرؤوس أو انتزعت من مكانها لصار شكل ورق الحائط أقل سوءًا بكثير.

***

أعتقد أن تلك المرأة تخرج بالنهار!

وسأخبركم لَمَ ... فقد رأيتها بنفسي ... ولكن هذا سر!

أراها خارجًا من كل نافذة من نوافذي!

إنها نفس المرأة.. أعرف ذلك لأنها تزحف دائمًا، وأغلب النساء لا يزحفن بالليل.

أراها عند ذلك الزقاق الظليل الطويل تزحف إلى الأعلى وإلى الأسفل.. أراها عند تعريشات العنب المظلمة تزحف في كل مكان عبر الحديقة.

أراها تزحف أسفل الأشجار على طول الطريق الطويل، وعندما تمر مركبة تتخفّى تحت تعريشات التوت.

لا ألومها على الإطلاق.. فبالتأكيد تشعر بالإذلال من أن يعثر عليها أحدهم وهي تزحف هكذا بالنهار.

أغلق باب غرفتي بالنهار دومًا. ولكن، لا سبيل لإغلاق الباب بالليل لأني أعرف أن "جون" قد ينتابه الشك فورًا.

صار "جون" غريبًا جدًا الآن، لدرجة أني أتجنب إثارة غضبه. أتمنى لو يأخذ غرفة أخرى. غير ذلك، لا أريد لأحد أن يخرج المرأة بالليل غيري أنا.

أتساءل لو بإمكاني رؤيتها من نوافذ غرفتي.

ولكني أغيّر رأيي فورًا.. فهناك نافذة واحدة فقط مسموح لي بالنظر من خلالها.

وبرغم ذلك مازلت أراها.. بإمكانها الزحف سريعًا حتى قبل أن أغيّر رأيي.

رأيتها أكثر من مرة في مكانٍ بعيد في الريف تزحف سريعًا وكأنها سحابة سوداء تذروها رياح عاصفة.

***

لو كان بإمكاني خلع النمط العلوي عن السفلي! أحاول ذلك شيئًا فشيئًا.

اكتشفت أمرًا غريبًا أيضًا، ولكني لن أفصح عنه هذه المرة! لا يجب أن أثق بالنس بهذا القدر.

تبقى يومان فقط حتى أنزع ورق الحائط، وأعتقد أن "جون" بدأ يلاحظ ... لا تعجبني النظرة التي بدأت ترتسم على وجهه.

سمعته يسأل "جيني" كثيرًا عني، وبالطبع كان لديها تقرير مفصل لتقدمه.

قالت أني أنام جيدًا بالنهار.

هو يعلم جيدًا أني لا أنام براحتي ليلًا ... إلا أني هادئة جدًا!

كان يسألني كثيرًا أيضًا ويدّعي الحب والحنان.

وكأني لا أستطيع سبر أغواره!

إلا أني لا أستغرب تصرفه ... فقد نام في ظل ورق الحائط ذاك ثلاثة شهور كاملين.

الأمر يهمني أنا، ولكني متأكدة أن "جون" و"جيني" متأثران به ... ولو في السر.

***

وأخيييييزًا! حلّ اليوم الأخير، ولكنه كافٍ. سيبقى "جون" في المدينة طول الليل ولن يخرج إلا مساءً.

أرادت "جيني" النوم معي – تلك الماكرة! – ولكني أخبرتها أني أحتاج لراحة كثيرة بدون شك لوحدي.

كان هذا تصرفًا ذكيًا مني، لأني لن أنام وحدي مطلقًا! ها قد اقترب نور القمر، وبدأت المرأة الغلبانة في الزحف وهزهزة ورق الحائط ... قمت مسرعةً لأساعدها.

جذبتها وهي تهز ورق الحائط.. ثم جذبتني هي وهززت أنا ورق الحائط.. ظللنا هكذا حتى الصباح وحينها كنّا قد قشّرنا الورق تمامًا.

قشّرت شريطًا أطول مني مرة ونصف بطول الغرفة.

وعندما طلعت الشمس وجدت ورق الحائط يضحك لي ... فقررت أن أنتهي منه اليوم.

سنرحل غدًا، وها هم بدءا ينقلون أثاثي إلى الأسفل ليتركوا الأمور على ما كانت عليه.

نظرت "جيني" إلى ورق الحائط في ذهول، لكني قلت لها بصراحة أني نزعت الورق نكايةً في هذا الشيء الشرير.

ضحكت وقالت أنها لن تمانع فعل ذلك بنفسها، لكنت عاودت التأكيد على ضرورة عدم إرهاقي لنفسي.

كم خانت نفسها هذه المرة!

ولكني هنا، ولا يلمس أحد هذا الورق غيري ... أقصد لا شيء حي.

حاولت إخراجي من الغرفة ... كم كانت مفضوحة! ولكني قلت أن الغرفة صارت هادئة وشاغرة ونظيفة جدًا الآن، حتى أني فكّرت لو استلقيت قليلًا ونمت قدر الإمكان ولا يوقظني أحدهم لتناول الغداء ... سأنادي عليهم فقط عندما أستيقظ.

ومع خروج "جيني" من الغرفة، ورحيل الخدم، ونزول الأثاث، وعدم وجود شيء في الغرفة إلا هذا الفراش الضخم المثبت في الأرضية بالمسامير والمفرش القماش الذي يعتليه.

سيتوجب علينا أن ننام بالأسفل الليلة ثم نأخذ مركبًا للرحيل غدًا.

أنا مستمتعة بغرفتي فعلًا ... والآن صارت شاغرة من جديد.

كيف كان الأطفال يتشاقون في هذه الغرفة؟

أعني أن هيكل السرير متآكل فعليًا.

ولكن يجب أن أعود إلى العمل.

أقفلت باب الغرفة ورميت المفتاح على الطريق الأمامي.

لا أريد أن أخرج، ولا أريد أحدًا أن يدخل، حتى يأتي "جون".

أريد أن أبهره.

أخبئت هنا حبلًا حتى "جيني" لم تعثر عليه، وإن خرجت تلك المرأة وحاولت الهروب سأربطها هنا.

ولكني نسيت أني لن أستطيع الذهاب بعيدًا بدون شيء أستند عليه.

هذا الفراش لن يتحرك!

حاولت رفعه ودفعه، ولكن بدون فائدة حتى امتلئت غضبًا لدرجة أني قضمت جزءًا منه عند أحد أركانه ... أوجعتني أسناني كثيرًا.

نزعت ورق الحائط الذي طالته يديّ تمامًا وأنا واقفة على أرضية الغرفة. كان الورق ملتصقًا تمامًا والنمط المرسوم عليه مستمتع بذلك!

كل تلك الرؤوس المختنقة والعيون البصلية الشكل والفطر المتهادي هنا وهناك، كل هؤلاء يتنامون في سخرية!

انتابني الغضب كثيرًا لدرجة اضطررت فيها لتصرفٍ يائس ... لو قفزت من النافذة لكان هذا تمرينًا مذهلًا، ولكن القضبان منيعة جدًا تحول بيني وبين رغبتي.

إلا أنني لن أفعل ذلك.. بالطبع ما كنت لأفعل. أعلم تمام العلم أن خطوة كهذه غير مناسبة وسيُساء فهمها.

لا أحب النظر من النافذة حتى، فهناك الكثير من النساء الزاحفات، وهن يزحفن بسرعة.

أتساءل لو أن كل تلك النسوة قد خرجن من ورق الحائط كما فعلت!

ولكني الآن مرتبطة بهذا الحبل الذي أخفيته جيدًا.. لن تهربي مني على الطريق مجددًا!

أعتقد أنه يتوجب عليّ أن أتخفى خلف النمط عندما يحل الليل ... ولكن الأمر صعب.

سيكون من اللطيف لو خرجت في هذه الغرفة الواسعة وتزحف كما أريد!

لا أريد الخروج.. لن أخرج ولو طلبت مني "جيني" الخروج.

بالخارج كل شيء أخضر اللون لا أصفر، وسيتوجب عليها الزحف على الأرض.

ولكن هنا أستطيع الزحف كما أريد على الأرضية، حتى أن كتفي يناسب ذلك الإطار الطويل حول الحائط.. لذا، فلن أضل طريقي.

لَمَ يقف "جون" عند الباب؟

ليس لذلك من فائدة أيها الشاب.. لا يمكنك فتح الباب!

ينادي عليّ ويضرب على الباب بقوة!

والآن أحضر فأسًا.. سيكون من العار أن يكسر هذا الباب الجميل!

قلت بصوتٍ ناعم: "حبيبي جون.. المفتاح بالأسفل عند الدرج الأمامي ... تحت شجرة الموز!

أسكتته كلماتي بضع دقائق.. ثم عاود وقال بهدوء شديد: "افتحي الباب حبيبتي".

قلت له: "لا أقدر.. المفتاح بالأسفل عند الدرج الأمامي تحت شجرة الموز!".

قلتها مجددًا عدة مرات بصوتٍ هادئ وبطيئ جدًا ... أعدتها كثيرًا حتى نزل وأحضر المفتاح طبعًا، ثم دخل ... وقف عند الباب وصرخ:

– ما الذي يجري؟! ماذا تفعلين بالله عليكِ؟

ظليّت أزحف وأنا أنظر إليه من كتفي ... ثم قلت:

– خرجت أخيرًا رغمًا عنك أنت و"جيني" ونزعت أغلب ورق الحائط، لذا لن تستطيع إعادتي مرة أخرى.

لا أعلم ما الذي جعله يُغمى عليه هكذا، ولكنه أغمى عليه فعلًا في طريقي نحو الحائط ... لذا ظليّت أزحف فوق جسده كل مرة.

لوكوندو

إدوارد لوكاس وايت



- لابد أن هناك سبب يجعل الإنسان يصدّق ما تراه عيناه، وعندما تتفق العينان مع الأذنين، فلا مجال للشك. على الإنسان حينها أن يصدّق ما قد رآه وسمعه.

هكذا قال "تومبلي"

- ولكن ليس دائمًا.

ردّ "سينجليتون" بهدوء.

توجه الجميع بأنظارهم نحو "سينجليتون". كان "تومبلي" واقفًا على سجّادة، وظهره مستند على حاجزٍ حديدي، وقدماه ممددتان، ينفث هواءً يخيّم على الغرفة كالمعتاد، بينما كان "سينجليتون" كالعادة متروِيًا في أحد أركانها. ولكن بعدما تحدث وقال شيئًا توجهت أنظارنا جميعًا إليه في صمتٍ عفوي مستفز يحثّ على الكلام.

قال:

- كنت أفكّر.

ثم سكت برهةً وأتبع:

- كنت أفكّر في أمرٍ رأيته وسمعته في أفريقيا.

الآن، لو كان هناك أمر نجتمع كلنا على استحالته لكان فهمنا لشيءٍ أكيد حيال تجارب "سينجليتون" في أفريقيا. فمع وجود متسلق الجبال هذا في القصة، والذي تتلخص حكاياته دومًا في أنه تسلق الجبل وهبط منه، فإن جلّ ما يكشف عنه "سينجليتون" هو أنه ذهب إلى هناك وعاد من جديد. ولكن هذه المرة أسرت كلماته انتباهنا في الحال، اختفى "تومبلي" من على السجّادة التي كان واقفًا عليها، لدرجة أن لا أحدٌ منا يذكر متى ذهب.

تبدّل جوّ الغرفة تمامًا، واتجهت الأنظار نحو "سينجليتون" في وسط أدخنة السجائر الطازجة المتسارعة والخبيثة أيضًا. أشعل "سينجليتون" سيجارة هو الآخر، ولكنها انطفأت على الفور، ولم يشعلها مجددًا.

***

كنّا في "الغابة العظيمة" نبحث عن الأقزام. كانت لدى "فان ريتين" نظرية تقول أن الأقزام الذين عثر عليهم "ستانلي" والآخرون عبارة عن مجرد سلالة هجينة من الزنوج العاديين والأقزام الحقيقيين. كان يأمل في اكتشاف عِرق من الرجال الذين تصل أطوالهم إلى ثلاثة أقدام على الأكثر، أو أقصر. ولكن لم نجد أثر لأي من هذا.

كانت أعداد السكان الأصليين قليلة، والطرائد أقل كثيرًا.. الطعام نادر فعلًا، ولا شيء هناك غير الطرائد إلا تلك الغابة.. أكثر

الغابات تعقيدًا ورطوبةً وبللًا. لم يكن هناك غرباء في القرية إلّانا؛ ولم نقابل ساكنًا أصليًا قد صادف أبيضًا من قبل.. معظمهم لم يسمعوا عن البيض من قبل. وفجأة بعد الواحدة ظهرًا جاء إلى مخيمنا رجل إنجليزي يبدو عليه الإنهاك كثيرًا. لم نسمع عنه شيئًا؛ ولكنه لم يكن قد سمع عنّا فقط، بل قضى خمسة أيامٍ سيرًا يبحث عنّا. حتى مرشده وعتّاليه الإثنين كانا مجهدين مثله. ورغم ردائه البالي ولحيته التي طالت على مدار الخمسة أيام التي قضاها سيرًا إلينا، إلا أنه ظل محتفظًا بأناقته وشياكته وحفاظه على حلاقة ذقنه يوميًا. صحيح أنه كان قصيرًا، لكن نحيل الجسم كذلك. كان صاحب وجهٍ بريطاني تبدو عليه ملامح البرود ولا يرى الغريب من وجهه أي لون من ألوان المشاعر. كان له وجه جامد لا يعطي إلا تعبيرًا واحدًا.. تعبير يوحي بأن الرجل مستعد للسفر حول العالم متألقًا دون أن يتدخل أو يضايق أي شخص.

اسمه كان "إيتشام".. عرّف نفسه بتواضع وتناول الطعام معنا وكأنه يريدنا أن نطمأن إليه. بدا من شكل عتّاليه – مقارنةً بعتّالينا نحن – أن الرجل سافر لخمسة أيام دون أن يتناول أكثر من ثلاث وجبات ... وجبات صغيرة أيضًا. وبعد أن أشعل سيجارًا، أخبرنا لَمَ قدم إلينا.

– قائدي متوعك جدًا ...

نفث دخان سيجارته مجددًا وأتبع يقول:

- سيموت لو ظلت حالته هكذا. ظننت ربما ....

جاءت كلماته ناعمة ونبرته كذلك، ولكني رأيت على شفته العليا قطرتين من بصاقه أسفل شنبه القصير الثخين، ولاحظت مشاعر مكبوتة في كلامه، ولهفة خفية في عينيه، وخفقان حزين يكمن بداخله ويبدو على سلوكه.. لاحظ ذلك على الفور. لم يبدِ "فان ريتين" أي مشاعر تجاه الرجل، وحتى لو كانت لديه مشاعر فإنه لم يبدها، ولكنه ظل مستمعًا، وكم فاجأني هذا! لأنه كان رجلًا صريحًا، ولكنه ظل مستمعًا لكلمات "إيتشام" المتقطعة الصعبة حتى أنه طرح أسئلة عليه.

- من قائدك؟

قال "إيتشام" متلعثمًا:

- "ستون"!

أثارنا الاسم نحن الاثنين.. فقلنا في صوتٍ واحد:

- "رالف ستون"؟

أومأ "إيتشام".

ساد الصمت لحظات بيني وبين "فان ريتين"، صحيح أنه لم يرَ "ستون" من قبل، إلا أنني كنت زميل دراسة له، وكنت قد تحدثت مَع "فان ريتين" بخصوصه عدة مرات أمام نار المخيم. سمعنا عنه منذ عامين في جنوب "لويبو" في بلدة "بالوندا" التي صخبت بالحديث عن كفاحه البطولي ضد دجّال "بالوندا" الذي انتهى بهزيمة الدجّال وإذلال قبيلته على يد "ستون". حتى أن هؤلاء القوم كسروا فم صنم الدجّال وأحضروه إلى "ستون". كان الأمر شبيهًا بانتصار نبي الله "إلياس" على أنبياءِ الإله "بعل" ... بل كان الأمر أكثر هولًا لقوم "بالوندا".

كنّا نظن أن الرجل بعيد جدًا، حتى لو كان في أفريقيا أصلًا، ولكن اتضح الآن أنه قريب منّا.. بل وقد سبقنا إلى هدفنا أيضًا.

***

أعادت كلمات "إيتشام" عن "ستون" قصته المحيّرة إلى الأذهان؛ أبواه الرائعان وموهما المأساوي، وتفوقه الجامعي، وغناه الفاحش، وشبابه الواعد، وسوء سمعته الشهيرة، وحكايته الحقيقية بخصوص فراره مع تلك المؤلفة البارعة التي جعلت قصصها الكثيرة لها اسمًا كبيرًا رغم حداثة سنها، والتي كان يُشهد لها بجمالها وسحرها، وكذلك فضيحة قضية خيانة العهد بينهما بعد ذلك، وإخلاصها الشديد إليه بالرغم من ذلك، وخلافهما الكبير بعد كل ما حدث، وطلاقهما، وأيضًا الشائعات التي تأكدت بشأن زواجه المرتقب من

المدعية في قضية خيانة العهد، وزواجه من عروسه المطلقة، ثم خلافهما وطلاقهما الثاني، ورحيله عن بلاده، وهجرته إلى القارة السمراء. داهمتني كل هذه الأفكار فجأة، والأكيد أنها داهمت "فان ريتين" كذلك، الذي جلس صامتًا.

سأل "فان ريتين":

– أين "ويرنر"؟

قال "إيتشام":

– مات! ... توفي قبل أن ألحق بـــ"ستون".

– ألم تكن برفقة "ستون" في "لويبو"؟

– لا.. انضممت إليه لدى "شلالات ستانلي".

– ومن معه الآن؟

– فقط خدمه وعتّاليه الزنزباريين.

– أي نوع من العتّالين؟

– رجال "مانج باتو".

أثار هذا إعجاب "فان ريتين" وإعجابي أنا أيضًا.. كثيرًا. لأن هذا يحمل سمعة "ستون" كزعيمٍ كبير. حتى الآن لم يكن بإمكان أحد أن

يستعمل رجال "مانج باتو" كعتّالين خارج منطقتهم أو حتى أن يتبعوه في رحلاتٍ طويلة أو صعبة.

سأل "فان ريتين":

– هل مكثت بين رجال "مانج باتو" طويلًا؟

– بضعة أسابيع ... كان "ستون" يهتم بهم كثيرًا، حتى أنه اختلق مجموعة من الكلمات والعبارات البسيطة ليتعامل معهم. كانت لديه نظرية أن رجال "مانج باتو" متفرعون من "بالوندا" ... حتى أنه وجد تأكيدًا على ذلك في عاداهم وتقاليدهم.

– علامَ تحيا؟

– على الطرائد في أغلب الأحيان.

– كم استقر "ستون"؟

– منذ أكثر من شهر.

– وهل كنت تصطاد من أجل المخيم؟

احمر وجه "إيتشام" لدرجة الاحتراق وكأن جلده ينسلخ.

جاء رد "إيتشام" مصحوبًا بالندم:

– فقدت بعض الطرائد السهلة... لم أتقن هذا العمل أبدًا.

– وماذا أصاب قائدك؟

– أصابه شيء كالدمامل.

– لابد وأنه سيتغلب على دمل أو اثنين.

– ولكن هذه ليست دمامل، وليسوا دملًا واحدًا أو اثنين. جسمه مغطى بالدمامل تمامًا، وفي بعض الأحيان تجتمع خمسة دمامل سويًا في مكانٍ واحد. لو كانت هذه دمامل لكان فارق الحياة منذ زمن طويل. هذه الأشياء ليست سيئة في بعض الأحيان، ولكنها في أحيانٍ أخرى تصبح سيئة جدًا.

– ماذا تقصد؟

– حسنًا، ليس الالتهاب عميقًا ولا واسعًا كما هو حال الدمامل، ولا تؤلمه كذلك، ولا تسبب له الحمى. إلا أن تلك الأشياء تبدو كمرض يؤثر على عقله. تخيل أنه دعاني في مرة لأساعده في وضع الضمادة على أول دمل، ولكنه كان يخفي بقية الدمامل عني وعن الآخرين بمنتهى الحرص. كما أنه يلزم خيمته عندما تتكاثر تلك الأشياء، ولا يدعني حينها لتغيير ضماداته أو الاقتراب منه أساسًا.

– هل لديكم الكثير من الضمادات؟

رد بصوتٍ يعتريه الشك:

– لدينا البعض، ولكنه لا يستخدمها.. إنه يغسل الضمادات ويستخدمها من جديد.

– كيف يتعامل مع الدمامل المتورمة؟

– يكشطها حتى يصل إلى اللحم.. باستخدام موس الحلاقة.

– ماذا؟!

لم يجد "إيتشام" إجابة ... بل ظل ينظر إليه بثبات في عينيه.

قال "فان ريتين" سريعًا:

– معذرة! لقد أدهشتني، ولكن هذه ليست دمامل.. لو كانت هذه دمامل لكان فارق الحياة منذ زمن طويل.

قال "إيتشام" متلعثمًا:

– أعتقد أني قلت أنها ليست دمامل.

– ولكن الرجل بالتأكيد يجن جنونه!

– بالفعل.. لم يعد يتقبل أي نصيحة ولا يسيطر على نفسه.

– كم دملًا عالجه بهذه الطريقة؟

– اثنين على حد علمي.

– اثنين؟!

احمر وجه "إيتشام" مجددًا.

- رأيته.. عبر شقٍ في كوخه.. شعرت أني مجبر على أن أتابعه، وكأنه غير مسؤول عن نفسه.

- معك حق! وهل رأيته يفعل ذلك مرتين؟

- وأعتقد أنه فعل نفس الشيء مع البقية.

- كم دملًا لديه؟

- العشرات.

- وهل يأكل؟

- وكأنه وحش.. يأكل أكثر مما يأكل اثنين من العتّالين.

- هل يمشي؟

- يزحف قليلًا ويئن.

- ويعاني من حمى بسيطة كما تقول؟

- أجل، أحيانًا تكون عادية وأحيانًا تزيد جدًا.

- هل يهذي؟

- مرتين فقط.. مرة عندما ظهر الدمل الأول ومرة أخرى لاحقًا. لم يسمح لأحد بالاقتراب منه حينها. ولكن كان بوسعنا سماعه يتحدث بثبات.. أثار هذا خوف السكان الأصليين.

- هل كان يتحدث مثلهم وهو يهذي؟

– لا، ولكنه كان يتحث بلكنة شبيهة. قال "حامد برجاش" أنه كان يتحدث بلغة "بالوندا". أعرف القليل عن هذه اللغة، فأنا لا أتعلم اللغات بسهولة. تعلم "ستون" المزيد عن لغة "مانج باتو" في أسبوع واحد أكثر مما قد أتعلمه أنا في عام كامل، ولكني سمعته يقول كلمات تشبه لغة "مانج باتو". على أية حال، كان عتّالو "مانج باتو" مرتعبين.

– مرتعبين؟

هكذا قال "فان ريتين" مرتين متعجبًا.

– وكذلك كان الرجال الزنزباريين، حتى "حامد برجاش" نفسه، وأنا كذلك. ولكني كنت مرتعبًا لسببٍ آخر.. لأني سمعته يتحدث بصوتين مختلفين.

– صوتين؟

– أجل، أكثر إثارة مما يبدو عليه صوته الطبيعي. كان يصدر عنه صوتان وكأنه حوار. الصوت الأول صوته هو والصوت الآخر صوت صغير نحيف نحيل لم أسمع مثله قط. لاحظت من ضمن النبرات التي يصدرها هذا الصوت العميق كلمات مثل كلمات "مانج باتو" التي أعرفها. لاحظت كلمات مثل "نيدرو=رأس" و"ميتابابا=كتف" و"نيدو=فخذ"، وربما أيضًا "كودرا=يتكلم" و"نيكري=يصفر"، وسمعت صوتًا صاخبًا تتوسطه كلمات مثل "ماتوميبا=قتل"،

و"أنجونزي=موت" و"كامومامي=كراهية". قال "حامد برجاش" أنه سمع نفس الكلمات أيضًا، خصوصًا وأنه يعرف لغة "مانج باتو" أفضل مني بكثير.

– ماذا قال العتّالون؟

– قالوا "لوكوندو".. لم أعرف معنى الكلمة، ثم أخبرني "حامد برجاش" أنها تعني "فهد" في لغة "مانج باتو".

ثم قال "فان ريتين":

– بل تعني "مشعوذة" في لغة "مانج باتو".

– ليس غريبًا أن يعتقدوا هذا، فالأمر كان كافيًا ليجعل المرء يصدق الشعوذة بعد سماع الصوتين.

سأله "فان ريتين" بلامبالاة:

– هل كان كل صوت يرد على الآخر؟

اصفر وجه "إيتشام" وقال بصوتٍ مبحوح:

– كانا يتحدثان أحيانًا في نفس الوقت.

ضاح "فان ريتين":

– في نفس الوقت!

- سمع الرجال نفس الصوت كذلك، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد.

توقف "إيتشام" عن الحديث، ونظر ناحيتنا بلا حول ولا قوة ثم أتبع:

- هل بإمكان أحدهم الحديث والصفير في نفس الوقت؟

- ماذا تقصد؟

- كنّا نسمع صوت "ستون" الضخم العميق الجهير، وفي نفس الوقت نسمع صفيرًا عاليًا حادًا.. أغرب صوت صفير سمعته. ليس من الغريب أن ترى رجلًا جهير الصوت يصفّر بحدّة، لكن صفير هذا الرجل كان يختلف عن صفير فتى أو امرئ أو فتاة. كان الصوت أعلى ثلاثة أضعاف ربما. تخيّل أصغر طفلة تصفّر بصوت غير متناغم.. صوت "ستون" كان كذلك، بل أكثر حدة، من خلال صوته الجهير.

صرخ "فان ريتين" قائلًا:

- وأنت لم تذهب إليه؟

- لم يكن الرجل معتادًا على التهديدات، ولكنه هددنا - ليس بصورة مباشرة - ولكن نظرًا لكونه رجلًا مريضًا، ولكن تهديداته جاءت هادئة وقوية في الوقت ذاته. قال لو أن أحدًا منّا (وأنا منهم) اقترب منه وهو يعاني فإنه سيموت. لم يكن هذا أسلوبه المعتاد على

الإطلاق. بدا وكأنه ملك يعطي الأوامر بشأن احترام خصوصيته على فراش موته.. لم يكن من السهل تجاوز أوامره.

- فهمت.

- الرجل منهك تمامًا. ظننت ربما لو...

كرّر "إيتشام" كلامه مرتين في نبرة من اليأس يتضح فيها تعاطفه مع "ستون" وحبه الشديد له. ومن خلال حديثه كان واضحًا مدى عشقه للرجل ... سيده.

أما بالنسبة لـــ"فان ريتين"، ونظرًا لكونه رجل خبير فيما يفعله، فقد يكون بداخله قدر من الأنانية القاسية. صار الأمر واضحًا الآن. قال أننا نحمل أرواحنا على كفوفنا اليوم تلو الآخر تمامًا كما يفعل "ستون"، لدرجة أنه لم ينس يومًا روابط الدم والصداقة بين أي رفيقين من المستكشفين، ولكن ليس هناك أي داعي لتعرض أحدهما للخطر من أجل مصلحة الآخر، وأن الصيد يكفي أحدهما لا كليهما، وقال لو أن الاثنين اتحدا سويًا فإن مسألة الحصول على طعام ستكون أصعب بكثير، وأن خطر الموت جوعًا سيكون أكبر بكثير. مجرد انحرافنا عن مسيرتنا التي استمرت سبعة أيام (متضمنًا إيتشام) سينهي رحلتنا الاستكشافية برمتها.

***

كان حديث "فان ريتين" منطقيًا وله أسلوب خاص في التعامل مع "إيتشام" الذي جلس يعتذر له ويبجّله، كما يفعل التلميذ مع أستاذه في المدرسة.

قال "فان ريتين":

– أنا أبحث عن الأقزام مخاطرًا بحياتي ... أسعى وراءهم.

– حسنًا، ربما يثير اهتمامك هذان.

جاءت كلمات "إيتشام" هادئة ثم أخرج شيئين من جيب قميصه الجانبي وأعطاهما لـ"فان ريتين". كانا جسمين دائريين كبيرين يتراوح حجمهما ما بين البرقوق والخوخ، يملآن كف يد الرجل. كانا جسمين أسودين ... حتى أني لم أرَ ما هما للوهلة الأولى.

قال "فان ريتين" مستفهمًا:

– أقزام! أقزام بالفعل! ولكن لماذا ليسا بطول قدمين؟ أتقول لي أنهما بالغان؟

– لا أقول هذا.. يمكنك التأكد بنفسك.

أعطاني "فان ريتين" أحدهما. كانت الشمس على وشك المغيب، لكني تفحصّت الجسم في يدي جيدًا. كان رأسًا مجففًا، محفوظًا بعناية، واللحم قاسٍ وكأنه مقدد بمادة تشبه الفضة. تبرز بعض الفقرات من الرقبة الذابلة، والذقن السقيمة حادة يعلوها فكّ بارز، والأسنان

الصغيرة بيضاء تطلّ من بين شفتين منكمشتين، والأنف الصغير مسطحًا، وجبهة الرأس الدقيقة متضائلة، هذا بخلاف كتل صغيرة من الصوف المهترئ على جمجمة القزم الدقيقة. لم يكن في رأس القزم أي علامة تدل على طفولته أو حتى شبابه.. إلا أنه لم يكن عجوزًا كذلك.

– من أين أتيت بهذين؟

– لا أعرف ... وجدتهما بين متاع "ستون" وأنا أنقّب عن أي دواء أو عقار يساعدني في علاجه. لا أعرف أين عثر عليهما، ولكن مستعد أن أحلف أن الرجل لم يكن يحملهما عندما دخل المنطقة.

– متأكد؟

جحظت عينا "فان ريتين" وثبتت على "إيتشام" الذي ردّ متلعثمًا:

– جدًا.

اعترض "فان ريتين" قائلًا:

– ولكن كيف حصل عليهما من غير علمك؟

– في بعض الأحيان كنا نفترق عن بعض لعشرة أيام أثناء الصيد. على فكرة "ستون" ليس بالرجل المتكلم، ولم يكن يخبرني بكل ما يفعله، حتى "حامد برجاش" كان يخفي الكثير عن الرجال.

– هل فحصت هذين الرأسين؟

– بدقة.

أخرج "فان ريتين" مذكرته.. كان منظمًا.. ثم قطع ورقة وطبّقها وقطعها ثلاث قطع بالتساوي.. أعطاني واحدة وواحدة أخرى لـــ"إيتشام".

– هذا فقط للتأكد من فحوصاتي.. أريد من كلٍ منكما أن يكتب وحده ما يراه مهمًا في هذين الرأسين، ثم سأقارن ما كتبتماه.

سلّمت "إيتشام" قلم رصاص ثم أخذ يكتب.. عندما انتهى أعطاني القلم من جديد وأخذت أكتب.

ثم قال "فان ريتين" وهو يعطيني ورقته:

– والآن اقرأ الورقات الثلاث.

كتب "فان ريتين" في ورقته: "مشعوذة عجوز من بالوندا".

وكتب "إيتشام في ورقته: "صنم رجل عجوز من مانج باتو".

وكتبت أنا في ورقتي: "ساحر عجوز من كاتونجو".

صاح "فان ريتين":

– ها نحن! لم يقل أحدنا "واجابي" أو "باتوا" أو "وامبوتو" أو "وابوتو".. ولم نقل شيئًا متعلق بالأقزام مطلقًا.

قال "إيتشام":

- هكذا رأيت.

- ألم تقل أنه لم يكن يحملهما من قبل؟

- متأكد أنه لم يفعل.

- الأمر يستحق المتابعة.. سأذهب معك، وقبل كل شيء سأفعل ما بوسعي لإنقاذ "ستون".

مدّ "فان ريتين" يده فسلّم عليه "إيتشام" في صمت.. وفوق كل شيء كان شاكرًا.

***

كان بالإمكان أن نصل إلى "ستون" في خمسة أيام فقط، ولكن حرص "إيتشام" المفرط أخّرتنا قليلًا، فوصلنا في ثمانية أيام عرف فيها كل ما يريد معرفته وضمن خلالها مساعدتنا له. لم يكن بالإمكان أن نصل في سبعة أيام، والأدهى من ذلك أن "إيتشام" حثّنا بقلقٍ بالغ على أن لا نرهق قائده، إلا أنه كان يبدو عليه الإخلاص الشديد وحبه الجمّ لشخصية "ستون" رغم مظهره الجاف التقليدي.

وعندما وصلنا وجدنا "ستون" يحصل على الرعاية الكافية، فقد اختار "إيتشام" مكانًا جيدًا ذا سقفٍ مرتفع في وسط المخيم، حيث نُصبت الأكواخ جيدًا. كان "ستون" في حالةٍ جيدة بما يتناسب مع الرعاية التي كان يلقاها. لم يحصل "حامد برجاش" على لقب "السيد"

خلفًا لاثنين من سابقيه للاشيء، فالرجل كان كالسلطان في إدارته. وضع جماعة "مانج باتو" سويًا، ولم يخرج أحدهم عن طوعه، وكان يحسن سياستهم، كما أنه كان تحت يديه ممرضة ماهرة وخادمة مخلصة.

أما بالنسبة للرجلين الزنزباريين الآخرين فكانا مسؤولين عن الصيد، وحسنًا فعلا. ولو أن الجميع كانوا جوعى.. إلا أن الموت جوعًا لم يكن ليصيبهم.

كان "ستون" راقدًا على مهدٍ من القماش، إلى جانب منضدة خشبية قابلة للطي تشبه منضدة "التابوريه" التركية، فوقها زجاجة من الماء وبعض القوارير وساعة "ستون" وموس حلاقته داخل عبوته.

كان نظيفًا ولا يعاني من الهزال؛ ورغم ذلك كان عقله مسافرًا عنّا. صحيح أنه لم يفقد الوعي، إلا أنه كان في حالة دوار لا يقوى على إعطاء الأوامر ولا مقاومة أي أحد. يبدو أنه لم يرنا ونحن ندخل عليه ... لم يعرف أننا هنا أصلًا. كنت سأتعرف على ملامحه على أية حال. اختفى اندفاعه الصبياني وراحت كياسته أدراج الرياح تمامًا بالطبع. كانت رأسه – رغم ذلك – كرأس الأسد؛ شعره مازال كثيفًا، أصفر اللون ومموج، ولحيته المنمقة المموجة والطويلة نمت أثناء مرضه، ولكن لم تغير ملامحه. كان ضخمًا وعريض الصدر كذلك. بهتت عيناه.. ظل يتمتم ويدندن بأصواتٍ غير مفهومة.. لا كلمات.

ساعد "إيتشام" "فان ريتين" في نزع غطائه والنظر إلى جسمه. ورغم رقوده في الفراش لمدة طويلة، إلا أنه مازال محتفظًا بعضلاته. جسده كان خاليًا من الندوب تقريبًا إلا عند ركبتيه وكتفيه وصدره. عند كل ركبة – وفوقها أيضًا – كان هناك مجموعة من الندبات الدائرية وأكثر من عشر ندبات على كل كتف.. كلها في الأمام. اثنان أو ثلاثة من تلك الجروح كانوا مفتوحين، وأربعة أو خمسة كانوا بالكاد يقتربان من الشفاء. لم تكن هناك أية تورمات جديدة، إلا اثنين؛ على كلا جانبي صدره. الورم الموجود على الجانب الأيسر كان أعلى وأبعد من الآخر. لم تبدُ هذه الأشياء وكأنها بثور أو دمامل، ولكن كأن شيئًا غليظًا قويًا خرج منها بعدما شقّ طريقه بين لحمه وبشرته السليمتين اللتين لم تعانيا من أي التهاب.

قال "فان ريتين":

– لا يجب أن ألمس هذه".

فوافق "إيتشام".

أراحا "ستون" قدر الإمكان، وقبل مغيب الشمس فحصنا حالته مجددًا. كان يرقد على ظهره، ورغم صدره الكبير العريض، إلا أنه كان يبدو في سباتٍ عميق. تركنا "إيتشام" معه وتوجهنّا إلى الكوخ المجاور الذي خصصه لنا. لم تكن الأصوات في الغابة مختلفة عن

الأصوات التي كنا نسمعها في أي مكان آخر لعدة شهور، وسرعان ما استغرقت في النوم.

أحيانًا كنت أجد نفسي مستيقظًا أسمع شيئًا ما في الظلام الدامس. أسمع صوتين؛ الأول صوت "ستون" والثاني صوت صفير. كنت أعرف صوت "ستون" جيدًا حتى بعد مضي كل تلك السنوات على آخر مرة سمعته فيها. ولكن الصوت الثاني لم يكن كأي شيء سمعته قط. كان أضعف من صراخ طفلٍ وليد، إلا أن قوته كانت تزداد شيئًا فشيئًا، كصراخ حشرة. سمعت أنفاس "فان ريتين" بجواري في الظلام، ثم سمعني وعرف أني أسمع نفس الصوت أيضًا. كنت أعرف بعض كلمات "بالوندا" مثل "إيتشام"، ولكنّي لم أميز إلا كلمة أو اثنتين. تغيرت الأصوات وتخللتهما فترات من الصمت.

ولكن فجأة صدر الصوتان في نفس الوقت وبوتيرة سريعة. سمعت صوت "ستون" الجهير وكأنه في صحةٍ جيدة للغاية، ثم هذا الصوت الصريري المرتفع.. كلاهما يثرثران في نفس الوقت وكأن رجلان يتجادلان ويحاولان التغلب بالكلام على بعضهما.

قال "فان ريتين":

– لم يعد بإمكاني تحمل هذا.. دعنا نلقي نظرة عليه.

كان لديه واحدة من تلك المصابيح الأسطوانية الكهربائية، فتعثّر فيها في الظلام، ثم ضغط على زر تشغيلها وأشار إليّ لكي أتبعه. قال

لي خارج الكوخ أن أبقى ساكنًا ثم أطفأ المصباح وكأنه كان يعوقه عن سماع الصوت.

كان الظلام يحيطنا من كل جانب، باستثناء ضوء خافت صادر عن جمرة أوقدها العتّالون وشعاع ضوء ضعيف تائه بين الأشجار. النهر بجوارنا يصدر تمتمات خافتة. بإمكاننا سماع الصوتين سويًا، وفجأة تحول صوت الأنين إلى صوت موس حلاقة يقطع بحدّة وبشكلٍ لا يوصف.. استمر الصوت هكذا مع صوت "ستون" المتبرم بكلمات غير مفهومة كنعيب الغربان.

قال "فان ريتين":

– ربنا يا رحيم!

ثم أضاء المصباح فجأة.

وجدنا "إيتشام" مستغرقًا في النوم، متعبًا من قلقه الشديد، ومجهدًا من مسيرته الطويلة، ومرتاحًا جدًا الآن بعد أن انتقل الحمل من على كتفيه إلى كتفيّ "فان ريتين". حتى الضوء المسلط على وجهه لم يوقظه.

توقف الصفير وصار الصوتان متشابهين، كلاهما يصدر من كوخ "ستون". كشف ضوء أبيض مركّز عنه مستلقيًا كما تركناه، باستثناء أنه وضع يديه فوق رأسه ومزّق أغطيته وضماداته التي كانت على صدره.

انفجر التورم الذي كان على صدره الأيمن. سلّط "فان ريتين" الضوء عليه ورأيناه واضحًا. وجدنا رأسًا يحاول الخروج من بين لحمه.. رأس يشبه الرأس الذي عرضه علينا "إيتشام"، وكأنه رأس مصغر لقزم "بالوندا". رأس أسود لامع كبشرة أكثر زنوج أفريقيا سوادًا.. دارت عيناه البيضاوتان الشريرتان الصغيرتان، وظهرت أسنانه الدقيقة بين شفتيه الزنجيتين المقرفتين المحمرتين.. ثم ظهر وجهه الصغير بالكامل. كان هناك صوف هش غامض فوق رأسه الدقيق الذي يدور من جانبٍ لآخر بخبث وأخذ يزقزق باستمرار بصوتٍ عالٍ لا يمكن تصوره. وأخذ "ستون" يتمتم بصوتٍ منكسر .

توجه "فان ريتين" نحو "إيتشام" وأيقظه بصعوبة، وعندما رأى الأخير ما جرى أخذ يحملق ولم ينطق ببنت شفة.

سأله "فان ريتين":

– هل رأيته يكشط دملين؟

أومأ "إيتشام" باختناق.

– هل نزف كثيرًا؟

– قليل جدًا

– امسك يديه.

أخذ "فان ريتين" موس حلاقة "ستون" وأعطاني المصباح. لم يكن "ستون" يرى الضوء ولم يعرف أننا هنا أصلًا، ولكن ظل الرأس الصغير حبيسًا يصيح في وجهنا.

كانت يدا "فان ريتين" ثابتتين وهو يكشط الدمل بشدة وقوة. نزف "ستون" قليلًا جدًا ــ ثم غطّى "فان ريتين" الجرح وكأنه كان كدمة أو كشط.

توقف "ستون" عن الكلام في اللحظة التي كُشط فيها هذا الرأس، فعل "فان ريتين" كل ما بوسعه، ثم أخذ المصباح مني ثانيةً. انتزع البندقية وصوّبها نحو الأرض بالقرب من مهد "ستون".. ضرب الأرض بعقب البندقية مرة أو مرتين في غضب.

عدنا إلى كوخنا مجددًا، ولكن بعد أن جافاني النوم.

***

مع انتصاف نهار اليوم التالي، سمعنا الصوتين من كوخ "ستون"، وهناك وجدنا "إيتشام" نائمًا بجواره. انفجر الدمل على الناحية اليسرى، وظهر رأسٌ آخر يزقزق ويهمهم. استيقظ "إيتشام" وظللنا نحن الثلاثة واقفين محملقين. أقحم "ستون" صوتًا أجش في صوتٍ آخر زاعقٍ رنّان.

خطى "فان ريتين" إلى الأمام وأمسك بموس حلاقة "ستون" وانحنى صوب مهده والرأس الدقيق يزمجر في وجهه.

ثم تكلم "ستون" بالإنجليزية فجأة وقال:

– من أنت لتمسك موس حلاقتي؟

تراجع "فان ريتين" إلى الوراء واستقام.

وضحت عينا "ستون" ولمعت.. دارتا بتفحص في كل أرجاء الكوخ.

قال:

– إنها النهاية! عرفت أن هذه هي النهاية! بإمكاني رؤية "إيتشام" في صورته الطبيعية، ولكن أنت يا "سينجليتون"! آه يا "سينجليتون"! جاءتني أشباح من طفولتي لتشهد لحظاتي الأخيرة! وأنت أيها الشبح الغريب ذا اللحية السوداء يا من تحمل موس حلاقتي! ألستم جميعًا أشباحًا؟

قلت له:

– لست شبحًا يا "ستون".. أنا حيّ، وكذلك "إيتشام" و"فان ريتين".. نحن هنا لنساعدك.

قال مستفهمًا:

- "فانِ ريتين"! ها قد انتقل كفاحي إلى رجلٍ أفضل.. حظًا سعيدًا يا "فان ريتين".

اقترب "فان ريتين" منه وقال بصوتٍ هادئ:

- انتظر قليلًا أيها العجوز.. فقط وخزة واحدة.

أجابه "ستون" بهدوء شديد:

- لقد اعتدت على هذا الوخز لفترةٍ طويلة.. دعني أفارق الحياة بطريقتي، لم تكن حيّة العدار ذات الرؤوس التسع بهذا السوء. أما في حالتي هذه لو تخلصت من مائة، بل ألف دمل، لن تتخلص من اللعنة أبدًا.. ما سكن بين العظام لن يخرج من بين اللحم. لا تقطع من لحمي مجددًا.. عدني!

ذكّرني صوته بنبرته المسيطرة في صباه.. نبرته سيطرت على "فان ريتين" وعلينا جميعًا.

قال "فان ريتين":

- أعدك!

غابت عينا "ستون" عن الوعي مجددًا بعدها مباشرةً.

جلسنا نحن الثلاثة حوله وشاهدنا القزم البشع المثرثر المعجزة يخرج من لحم "ستون"، ثم خرجت ذراعان بشعان سوداوتان حرّتان. كانت أظافره متناهية الصغر تشبه هلالًا مضيئًا في كبد سماءٍ مظلمة،

وبقعة وردية على كف يده طبيعية تمامًا. تحركت ذراعاه حتى أمسكت الذراع اليمنى لحية "ستون" الطويلة.

أمسك "فان ريتين" بموس الحلاقة فورًا وقال:

– ليس بإمكاني تحمل هذا.

فتح "ستون" عينيه الجاحظتين اللامعتين وقال:

– هل يخلف "فان ريتين" وعده؟.. أبدًا!

لهث "فان ريتين":

– ولكن يجب أن نساعدك!

– لن تفيدني المساعدة ولن يؤلمني الوجع. لقد حانت ساعتي.. هذه اللعنة لم تُسلّط علي، بل تخرج مني كما يخرج هذا الرعب من بين لحمي.. ها أنا أرحل مجددًا.

انطفأت عيناه ووقفنا مشلولين تقريبًا نشاهد القزم وهو ينفث جملًا حادة.

نطق "ستون" ثانيةً وقال:

– أتتحدث كل اللغات؟

ردّ عليه القزم الصغير الوليد:

– أجل، كل ما تتحدثه حقًا.

أخرج القزم لسانه الدقيق بين شفتيه المتلويتين، وأخذ يهزّ رأسه من جانب إلى آخر. رأينا أضلاعه المخيطة بجنبيه الضعيفين كلما تنفس.

سأل "ستون" بصوتٍ مكتوم مختنق:

- هل سامحتني؟

انتحب القزم وقال:

- لو جيئت الشمس من مغربها ولمعت النجوم في عز النهار ... ستسامحك حينها.

حينها فقط قلب "ستون" نفسه على جانبه وسلّم روحه.

اختنق صوت "سينجليتون" بداخله وساد الصمت في الكوخ حتى سمع كلٌ منا أنفاس الآخر. لم يكسر هذا الصمت إلا "تومبلي" قليل الذوق، فقال:

- أعتقد أنكم قطعتم ذلك القزم الصغير ووضعتوه في قنينة من الكحول.

نظر إليه "سينجليتون" بصرامة وقال:

- لقد دفنّاه ... لم نشوّهه.

قال "تومبلي" عديم الضمير:

– ولكن هذا الأمر برمته فظيع!

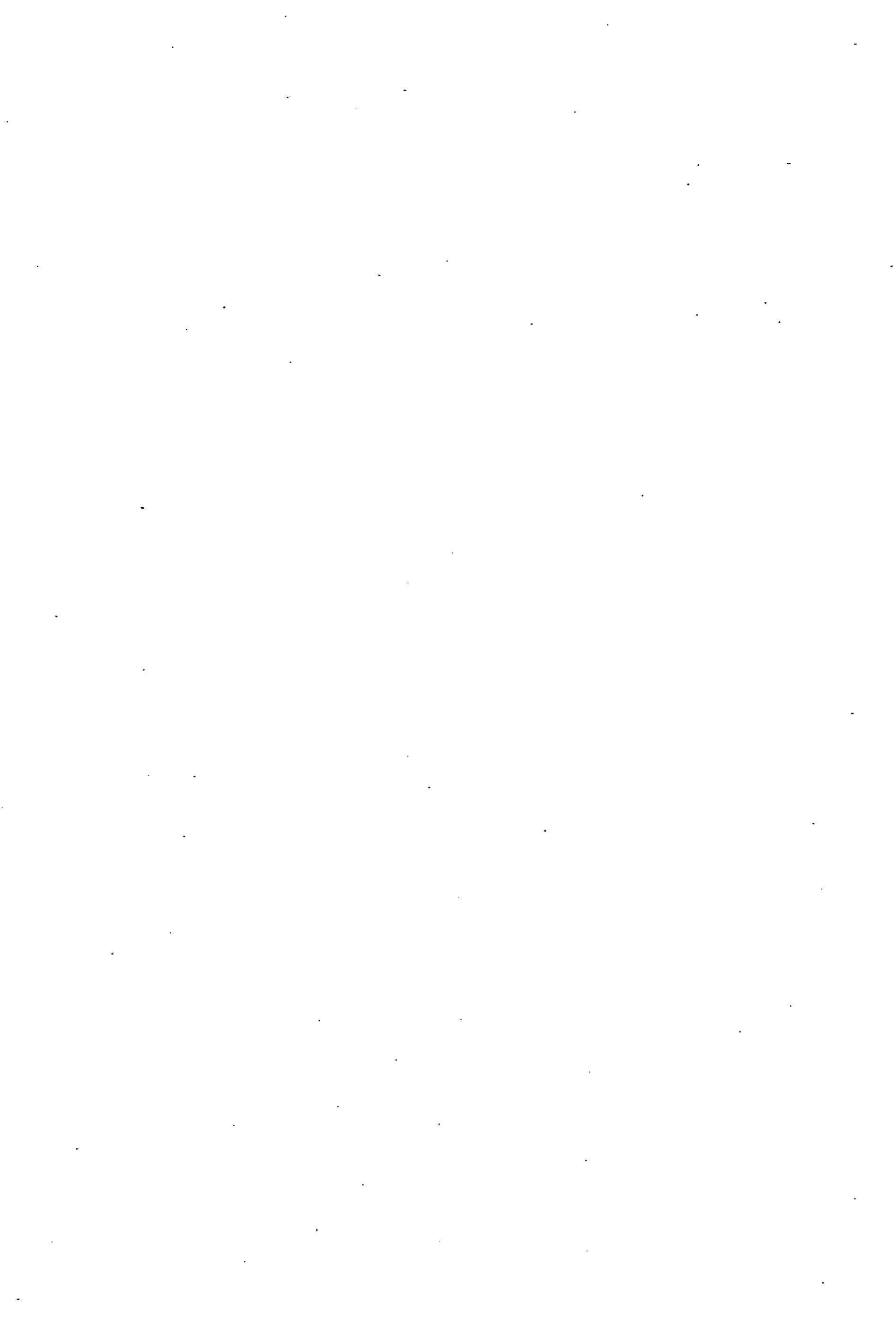
تيبّس وجه "سينجليتون" وقال:

– لم أتوقع أن تصدق كلمة مما قلت، ولكن تذكر حينما قلت في البداية أنني على الرغم من رؤية كل شيء وسماعه بنفسي، إلا أنني أكاد لا أصدقه.



الشيطان العاشق

إليزابيث بوين



يكاد شهر أغسطس يلفظ أنفاسه الأخيرة في يومٍ غائمٍ ممطر. تصطف الأشجار على أرصفة الشوارع وتتألق بمنأى عن شمس الظهيرة الصفراء الرطبة. تنتصب المداخن السوداء المتصدعة والجدران المنخفضة حول أسطح المنازل وتعانق غيوم السماء. وها قد أوشك يومها في عاصمة الضباب "لندن" على الانتهاء، عادت السيدة "دروفر" بسرعة إلى بيتها المغلق بحثًا عن أشياءٍ كثيرة تريد نقلها. بعض الأشياء لنفسها والبعض الآخر لأسرها المستقرة الآن في الريف. في هذا الشارع الذي كانت الحميمية سجيته يومًا ما، والآن صارت الغرابة تسكن جنباته – حاله حال أي زقاقٍ مهجور – لم ترَ السيدة "دروفر" إلّا هرة تحك جسمها بجدار الشارع يمينًا ويسارًا. كانت تحمل طردًا تحت ذراعها، وبصعوبة وضعت المفتاح في قفل باب بيتها، وبصعوبة أيضًا فتحت الباب المشوه، ثم أعطته دفعةً بركبتها استسلم لها على أثرها. وفور دخولها البيت لفحت وجهها نسمات من هواءٍ عَفِن.

كانت النافذة المطلة على سُلّم البيت مغلقة لم يتسرب الضوء من خلالها إلى الصالة.

ولكن، لاحظت السيدة "دروفر" باب غرفةٍ موارب انطلقت تجاهها وأغلقت مصراع نافذتها الكبيرة. نظرت السيدة متوسطة الجمال حولها، تعتريها الحيرة حيال كل ما تراه؛ آثار حياتها السابقة القديمة، وبقع الدخان الصفراء التي سكنت رف موقدها الرخامي، والحلق المتروك بجوار مزهريتها على سطح مكتبها، والبقعة الكبيرة على ورق حائط بيتها بسبب احتكاك مقبض الباب الصيني بالحائط كثيرًا كلما انفتح الباب. كان لابد أن يُخزّن هذا البيانو منذ زمن طويل، حتى ظهرت علامات تشبه المخالب على سطحه المكون من خشب الباركيه.

لم يدخل البيت ترابٌ كثير رغم ذلك، حيث رقد كل شيء في البيت أسفل غطاءٍ من نوعٍ ما، ولا مصدر للتهوية هناك إلا المدخنة. امتلأت غرفة الرسم برائحة الموقد البارد. وضعت السيدة "دروفر" طردها فوق المكتب لتترك الغرفة وتصعد على السُلّم لتجلب الأشياء التي تحتاجها من صندوق غرفة نومها.

كانت متلهفة لرؤية حال البيت، فالموظف المسؤول عن العناية بالبيت – والذي اشتركت في استئجاره مع بعض جيرانها – كان في إجازة طوال هذا الأسبوع ولم يعد من الإجازة بعد. لم يكن الرجل

يعتني بالبيت كثيرًا، حتى أنها لم تكن تثق به. كانت هناك بعض التشققات في هيكل البيت من أثر آخر انفجار، وكانت متلهفة للنظر إليه، وكأنه ليس بيدها فعل أي شيء آخر.

والآن هناك خيط من ضوء النهار يسكن جميع أنحاء الصالة. ظلّت السيدة "دروفر" متسمّرة في مكانها تحملّق في منضدة الصالة.. في خطابٍ أعلى المنضدة موجه إليها.

اعتقدت في البداية أن المسؤول عن العناية بالبيت قد عاد إلى عمله، ولكن هل من المعقول أن يترك أحدهم خطابًا في صندوق البريد والبيت مازال مغلقًا؟ فهذه ليست مجلة دورية ولا فاتورة. كان مكتب البريد يعيد توجيه الخطابات المرسلة إليها من خلاله، وحتى لو كان المسؤول عن العناية بالبيت عاد إلى عمله، فإنه لم يكن يعلم أنها في "لندن" اليوم، فوجودها هنا اليوم أمرٌ مفاجئ، ولذا فإن إهماله المتمثل في تركه هذا الخطاب هكذا وسط التراب أمرٌ قد ضايقها. أخذت الخطاب بعنف.. الخطاب لا يحمل أي طابع بريد. ولكنها لم تعتقد أن الخطاب مهم، ومن يدري؟ أخذت الخطاب معها وصعدت على السُلّم بدون أن تلقى ولو نظرة على المكتوب بداخله حتى أضاءت النور. كانت الغرفة تطل على الحديقة ذات الأشجار المُقلّمة والمهذّبة جيدًا. في الحديقة تبقى الأشجار وآلات التشذيب غير واضحة المعالم مع حلول الظلام. شعورها بشيء دخيل على حياتها

وأن هناك من يقطع عليها طريقها جعلها تتردد في النظر مجددًا في الخطاب، ولكن مع التوتر الذي يسبق هطول الأمطار، فتحت الخطاب وقرأت سطوره القصيرة:

عزيزتي "كاثلين". متأكدٌ أنكِ لم تنسي أن اليوم ذكرانا السنوية ... يوم الوعد المقطوع بيننا. مرت الأعوام علينا ببطء أحيانًا وبسرعة أحيانًا أخرى. ولكن لا شيء قد تغير فعلًا، ومازلت متأكد من أنكِ محافظة على وعدك. حزنت كثيرًا عندما علمت أنكِ تركتي "لندن"، ولكن تبدّد حزني تمامًا عندما عرفت أنك ستعودين يومًا. ستجديني عندك في الليلة الموعودة، ولكن حتى حينها ...

"ك"

نظرت السيدة "دروفر" على تاريخ الخطاب، وكان بتاريخ اليوم. وضعت الخطاب على الفراش ثم التقطته ثانيةً لتقرأه من جديد. هذه المرة ابيضت شفتاها الملطختان ببقايا أحمر الشفاه. بدأت تشعر بالتغير الذي ينتاب وجهها عندما نظرت في المرآة ومسحت جزءًا منها، ثم أخذت تنظر إلى نفسها في عجلةٍ وخلسة. رأت في المرآة امرأة في الرابعة والأربعين من عمرها ذات عينين بارزتين أسفل قبعتها المسحوبة للأسفل بإهمال. لم تكن المرأة قد وضعت على وجهها أي مسحوق تجميل منذ أن غادرت المحل بعد أن تناولت "تصبيرة" بعد الظهر. تتدلى من رقبتها النحيلة لآلئ أهداها لها زوجها يوم زواجهما

داخل رقبة الجاكيت الصوفي قرنفلي اللون الذي خاطته شقيقتها الخريف الماضي بينما كانتا تجلسان حول نار المدفئة. لطالما كان التعبير الأكثر طبيعية على وجه السيدة "دروفر" هو القلق الخفي، ولكنه قلقٌ مصحوب بالرضا. منذ أن أنجبت السيدة ابنها الثالث – في ظل إعيائها الشديد – ظهر اضطراب متقطع في عضلات وجهها بالقرب من فمها، ولكن بالرغم من ذلك مازالت تحافظ على أسلوبها الحيوي الهادئ.

ابتعدت السيدة عن المرآة وصورة وجهها المرتسمة عليها فجأة واتجهت صوب الصندوق حيث أشيائها، ثم فتحته، وألقت الغطاء، وأناخت لتبحث بداخله. ولكن مع هطول الأمطار بالخارج لم تستطع تجنب النظر من فوق كتفها ناحية الفراش العاري حيث يرقد الخطاب. خلف عاصفة من الأمطار بالخارج دقت ساعة الكنيسة السادسة تمامًا، حينها بدأت دقات قلبها البطيئة تتسارع شيئًا فشيئًا، وقالت بداخلها: "حانت الساعة ... يا رباه! أي ساعة؟ كيف؟ بعد خمسة وعشرين عامًا".

***

لم ترَ الشابة الصغيرة وجه الضابط الذي كانت تتحدث إليه في الحديثة بالكامل. كان الظلام مخيمًا، وكانا يودّعان بعضهما أسفل شجرة. كانت بين الفينة والفينة تتحسس وجوده معها لدقائق أكثر قليلًا بوضع يدها برفقٍ مصحوب بالألم على أزرار بزته العسكرية، لتعوّض على نفسها عدم رؤيته، على الرغم من أنها لم تره من قبل أصلًا. لم يتبق من تلك الذكرى إلا جزء صغير من أحد أزرار بزته العسكرية في يدها، كانت على أعتاب الرحيل عن فرنسا حينها، وتمنّت لو أنه يرحل. كان ذلك في أغسطس 1916. لم تلمس شفتاه شفتيها، وابتعد عنها بعض الشيء ونظر إليها وهي ترتعش من الخوف حتى أنها تخيلت عينيه طيفًا يلمع أمامها. أزاحت نظرها بعيدًا عنه إلى المرج الأخضر من بين فروع الأشجار من نافذة غرفة الرسم. أخذت نفسًا طويلًا وركضت إلى حضن أمها وأختها الدافئ وبكت:

– ماذا أفعل؟ ماذا أفعل وقد رحل؟

سمع خطيبها بكاءها وقال ببرود:

– أتشعرين بالبرد؟

– ستتركني وتسافر بعيدًا.

– ليس بعيدًا كما تظنين.

– لا أفهم!

- ليس عليكِ أن تفهمي.. ستفهمين لاحقًا، فأنتِ تعلمين ما اتفقنا عليه.

- ولكن هذا كان.. من المفترض أنت.. من المفترض.

- سأعود إليكِ إن عاجلًا أم آجلًا، لن تنسي ذلك.. لا تفعلي شيئًا غير الانتظار.

لم يمر سوى دقيقتين حتى ركضت على المرج الأخضر وصعدت إلى غرفتها.

نظرت من نافذتها ناحية أمها وشقيقتها اللتان لم تلحظاها، وأحسّت حينها أن وعدًا غامضًا ضُرب بينها وبين الإنسانية كلها. لم يكن هناك أي شيء آخر جعلها تشعر بهذا الانفصال والضياع والكذب. لم تقطع في حياتها وعدًا أكثر شرًا من هذا الوعد.

تصرفت "كاثلين" جيدًا حينما جاءها خبر فقدان خطيبها بعد عدة شهور.. اعتبروه قتيلًا. لم تدعمها أسرتها فقط، بل قدّروا مدى شجاعتها كثيرًا لأنهم لم يحزنوا أصلًا على رحيل خطيبها عنها.. ذلك الرجل الذي لم يعرفوا عنه شيئًا تقريبًا. كان أملهم حينها أن تجد ابنتهم سلواها في عامٍ أو إثنين، فلا شيء يدفع الحياة إلى الأمام أكثر من المواساة. ولكن المشكلة فعلًا كان تكمن في حزنها القصير الذي جعلها تنفصل عن كل شيء. صحيح أنها لم ترفض أي عشّاق آخرين، ولكن لم يظهر في حياتها أي عشّاق أصلًا. فشلت "كاثلين" في جذب

أنظار الرجال لسنين، ومع اقتراب عامها الثلاثين صارت أكثر ميلًا للقلق كما هو حال أسرتها بالضبط. بدأت في الانسحاب من كل شيء، ثم تعجبت من حالها. ومع حلول عامها الثاني والثلاثين، فرحت كثيرًا عندما غازلها "ويليام دروفر". تزوجته واستقرا سويًا في ذلك الركن الملئ بالأشجار في مدينة "كينسينجتون". مرت السنون وأنجبت، وعاشوا جميعًا سويًا حتى أجبرتهم قنابل الحرب على الرحيل.

***

شُلت حركتها تمامًا وأزاحت من بالها فكرة أن هناك من يترقبها.

ولكن بغض النظر عن كل شيء، فصاحب هذا الخطاب – سواء كان حيًا أو ميتًا – لم يرسل إلّا تهديدًا لا أكثر. إلا أن السيدة "دروفر" لم تقوى لعدة دقائق على الميل بظهرها ناحية إحدى الغرف الشاغرة. قامت من على الصندوق وجلست على كرسيٍ مستقيم كان ظهره مستندًا إلى الحائط. فراشها المهجور، وهواء بيت الزوجية السابق الذي يعبأ بالذكريات، والذي كان يتميز بقوةٍ كبيرة، صار الآن بخارًا لا أثر له، ولكنه الآن عاد معبئًا بمشكلةٍ ما.. ذلك الخطاب الذي تركه صاحبه متعمدًا. ذلك الفراغ الذي سكن أرجاء البيت سنينًا طوال أخرس كل الأصوات التي لطالما كان يصدح صداها بين تلك الأرجاء، هذا غير العادات التي كانت تُمارس فيه، والخطوات التي خطاها سكّانه في كل ركنٍ فيه.

سمعت "كاثرين" من خلف النوافذ المغلقة صوت أمطارٍ تهطل على سطح البيت، ثم جمعت شتات نفسها سريعًا، ولما وجدت نفسها في حالة نفسية جيدة، أغمضت عينيها لثانيتين أو ثلاث، ثم قالت لنفسها أن هذا الخطاب خيالي لا وجود له، ولكن فور أن فتحت عينيها وجدت الخطاب راقدًا على الفراش أمامها.

لم تكن مستعدة للسماح لأي أفكار خزعبلية أن تسكن عقلها، ولكن من في لندن كلها يعرف أنها ستكون في البيت اليوم؟ الأكيد أن المسؤول عن العناية بالبيت هو الوحيد الذي يعرف هذه المعلومة، ولكن إذا كان قد دخل البيت بالفعل، فإنه كان سيضع الخطاب في حقيبته ليرسله إليها عبر البريد في وقتٍ لاحق. ولكن لا يوجد أثر يدل على أن ذلك الموظف كان في البيت، ولكن، في الوقت ذاته أيضًا فإن الخطابات التي يلقيها موظفو البريد لا تطير من نفسها ولا تسير على أقدامها لتستقر على طاولة الصالة. لا تتحرك الخطابات هكذا من تلقاء نفسها لتجلس على الطاولة في وسط التراب منتظرةً من يقرؤها. لابد أن يدًا بشرية طالت هذا الخطاب، ولكن لا أحد لديه مفتاح البيت إلا المسؤول عن عنايته، ولكن على أي حال فإن أي بيتٍ قد يدخله الغرباء بدون مفتاح. الاحتمال الأخطر هو أنها قد لا تكون بمفردها في البيت الآن.. ربما هناك من ينتظرها بالأسفل! ولكن لَم ينتظر؟ وإلى متى سينتظر؟ ربما إلى "الليلة الموعودة"، ولكن الساعة مازالت السادسة لحسن الحظ.

قامت من كرسيها وذهبت نحو الباب وأغلقته ...

ماذا تفعل؟ أتخرج؟ تهرب بعيدًا؟ ".. عليها أن تلحق قطارها، فهي امرأة تقدّس حياتها الزوجية، ولم تكن لتعود إلى الريف حيث زوجها وأطفالها الصغار وشقيقتها بدون الأشياء التي جاءت من أجلها. توجهت إلى الصندوق لتكمل بقية أغراضها، ثم أحضرتك حزمتين بإصرار وبسرعة، ولكنها لن تقدر على حمل كل تلك الأشياء وحدها، وهذا يعني أنها ستحتاج إلى تاكسي.. تسارعت ضربات قلبها وتعجّلت أنفاسها وهي تفكر في مسألة التاكسي. قالت لنفسها: "سأطلب تاكسي الآن كي يصل بمجرد أن أنهي أغراضي هنا مباشرةً. لن أنزل إلى الأسفل حتى أسمع محرك التاكسي يعمل بالخارج، ثم أنزل بهدوء إلى الصالة وأتوجه إليه. سأتصل عبر الهاتف، ولكن الهاتف معطل أساسًا. من توترها عقدت "كاثلين" رباط أحد حزمها بطريقة خاطئة.

ولكن ماذا عن الطيران؟ لم يكن الرجل حنونًا معي حقًا.. لا أذكر له ولو لحظة حنان واحدة. قالت لي أمي أنه لا يعيرني اهتمامًا من الأساس. كان همًا على قلبي، هكذا كان الأمر حقًا، لا حب على الإطلاق. ما الذي فعله ليحملني على وعدٍ كهذا؟ لا أذكر، ولكني أذكر أني فعلت.

تملّكها الرعب عندما تذكرت أن خمسة وعشرين عامًا قد مضت على آخر لقاءٍ بينهما.. تبخرت كل تلك السنين كالدخان، ثم نظرت إلى أثر النزر على راحة يدها وتذكرت كل ما قاله وفعله والحالة التي

كانت عليها في ذلك الأسبوع من أغسطس. كلهم قالوا لها أنها ليست على ما يُرام. تذكّرت كل شيء ماعدا وجهه الذي اختفى من ذاكرتها تمامًا وكأن قطرةً من الحمض سقطت على وجهه أخفت معالمه تمامًا.

ولذا، أينما ينتظرها هذا الرجل فهي لن تعرفه على الإطلاق.. لن تتعرف على وجهٍ لا تتوقعه مطلقًا.

كان كل همّها أن تجد تاكسي قبل أن ترن أي ساعة أخرى. ستتوجه إلى جانب الطريق نحو الميدان المؤدي إلى الطريق الرئيسي، ثم تعود في تاكسي إلى البيت من جديد وتجلب السائق إلى الداخل ليحمل معها الحزّم من غرفة إلى غرفة. هذه الفكرة جعلتها أكثر جرأة وشجاعة. فتحت الباب وذهبت إلى أعلى السُلّم ووضعت أذنها على الجدران كي تسمع ما يحدث بالأسفل.

لم تسمع شيئًا حتى لفح وجهها تيار هوائي غريب غير التيار البارد القادم من السُلّم.. تيار هوائي قادم من السُلّم السفلي من أحد النوافذ أو الأبواب، وكأن أحدهم فتح بابًا أو نافذة ليغادر البيت.

توقف المطر الذي جعل الرصيف بالخارج لامعًا حيث وقفت السيدة "دروفر" على بعد خطوات من باب بيتها في الشارع الشاغر تمامًا. بدت البيوت المهجورة على الناحية الأخرى وكأنها تحدق فيها وترمقها بنظراتٍ مخيفة. سارت في الشارع بحثًا عن تاكسي وهي

تتجنب النظر إلى الخلف. كان الصمت مخيفًا.. صمت غلّف لندن كلها بالخوف من أثر الحرب وخرابها.. صمت يجعل أي مار يسمع الهمس من بعيد. وحينما اقتربت من الميدان الذي ذهب الناس للسكن فيه اعتدلت في مشيتها غير الطبيعية. وعلى الناحية الأخرى لدى آخر الميدان مرت -نافلتان، ومجموعة من النسوة، وامرأة تدفع أمامها عربة أطفال، وشباب على دراجات، ورجل يقود عربة يد.. صورة عادية -نياة طبيعية. توجهت نحو موقف سيارات التاكسي في الميدان، ولكن في هذه الليلة لم تجد إلا سيارة واحدة تخلو من أي علامة مميزة.. تقف وحيدة وكأنها تنتظرها.

لم تنظر "كاثلين" إلى السائق، فقط وضعت يدها على باب التاكسي ثم أشعل السائق المحرك، ثم دقّت الساعة السابعة. توجه التاكسي نحو الطريق الرئيسي واضطر للالتفاف من أجل العودة إلى بيتها. أسندت ظهرها على مقعد السيارة حتى فوجئت أن التاكسي يتحرك.. حتى قبل أن تخبر السائق عن وجهتها. مالت إلى الأمام ثم خدشت زجاج السيارة الذي يفصل بينها وبين السائق.

ضغط السائق على الفرامل فجأة حتى كادت السيارة أن تتوقف، ثم التف وأغلق الزجاج بالكامل، فارتعبت "كاثرين" حتى كاد وجهها يرتطم بالزجاج من أثر هذه الحركة الفجائية. لم يفصل بينها وبين السائق إلا ست بوصات، نظر إلى الخلف والتقت عيناهما سويًا. ظل

فم "كاثلين" مفتوحًا ثوانٍ معدودات من هول المفاجأة قبل أن تطلق صرختها الأولى. ثم أخذت تصرخ كثيرًا وتضرب بيدها المغطاة بقفازها على زجاج التاكسي. انطلق السائق بأقصى سرعة حتى ابتلعتهما الشوارع النائية.



مخلب القرد

ويليام وايمارك جاكوبس



باالخارج كان الليل باردًا ورطبًا، لكن في ردهة "فيلا لابرنام" كانت الستائر مُسدلة و النيران مشتعلة، فيما كان الابن يلعب الشطرنج مع أبيه الذي كانت لديه أفكارًا تتضمن تغييرات جذرية بشأن اللعبة.

حينها وضع الأب ملكه في موقفٍ خطير لا يُحسد عليه إطلاقًا حتى استفز هذا السيدة ذات الشعر الأشيب التي تحيك بهدوء بجانب النيران لدرجة جعلتها تدلي بتعليقها.

– أصغيا للريح..

قال السيد "وايت" وقد اكتشف خطأً قاتلًا بعد فوات الأوان، محاولا منع ابنه من ملاحظته.

– إنني مصغ ...

قالها الابن ماسحًا الرقعة بينما يمد يديه، ثم قال:

– كش ملك .

قال الأب وهو يضع يديه فوق رقعة الشطرنج.

– كان ينبغي أن أعرف أنه سيأتي الليلة.

ردّ الابن:

– "ملك!".

قال السيد "وايت":

– هذه هي أسوأ معيشة على الإطلاق.. من بين كل الأماكن الكريهة الموحلة النائية، هذا هو الأسوأ. الممر عبارة عن مستنقع والطريق عبارة عن سيل. لا أعرف ما يفكر الناس بشأنه. أعتقد أنه بسبب تأجير هذين البيتين على الطريق فهم يظنون أنه لا مشاكل هناك.

قالت زوجته بهدوء:

– لا تهتم يا عزيزي.. ربما ستكسب المرة القادمة.

– ها هو ذا ...

هكذا قال "هربرت" بينما البوابة تغلق بعنف، وبدا صوت خطوات ثقيلة تقترب من الباب.

هرع الأب ليفتح الباب ، فدخل شخص طويل و بدين، ذو عينان برّاقتان وزجه أقرب للحمرة.

قال الأب مقدمًا الرجل:

– رقيب "موريس".

صافحهم الرجل، وأخذ مقعدًا بجانب النيران،وأخذ يراقب مضيفه بينما يحضر الخمر وكأسين ويضع براد شاي نحاسي صغير على النار.

بعد الكأس الثالث بدت عيناه أشد لمعانًا، ثم أخذ يتكلم.

التفت العائلة حول هذا الزائر القادم من الأماكن النائية، بينما استند هو بظهره على المقعد وتحدث عن مشاهد غريبة وأفعال شجاعة.. عن حروب و أوبئة و شعوب غريبة.

قال السيد "وايت" لزوجته و ابنه:

– مرّ عليه واحد و عشرون عامًا منذ أن ذهب وكان شابًا يعمل في مستودع.. انظروا له الآن.

قالت السيدة "وايت" بدماثة:

– لا يبدو أنه تأذى بشدة.

قال الرجل العجوز:

– أعتقد أنني أنا شخصيًا سأحب الذهاب للهند.. للسياحة فقط، أنت تعرف.

– الأفضل لك أن تظل هنا.

هكذا ردّ الرقيب وهو يهز رأسه، ثم وضع الكأس الفارغ وتنهد بهدوء ثم هزّها مرة أخرى، فقال الرجل العجوز:

– كم أحب أن أرى المعابد القديمة و المشعوذين! ماذا كنت تخبرني بالأمس عن مخلب قرد أو شيء من هذا القبيل يا "موريس"؟

ردّ باقتضاب:

– لا شيء.. لا شيء يستحق سماعه!

– مخلب قرد؟

تساءلت السيدة "وايت" بفضول.

فردّ عليها الرقيب:

– حسنًا!.. إنه واحد من هذه الأشياء التي يسمونها سحرًا.. ربما.

مال مستمعوه الثلاثة بفضول، بينما رفع الزائر الكأس الفارغ لفمه في حالةٍ من الشرود، ثم أنزله مرة أخرى ليملأه مضيفه.

قال الرقيب وهو يعبث في جيبه:

– انظروا.. إنه مجرد مخلب صغير عادي مجفف لمومياء.

أخرج شيئًا من جيبه وعرضه فتراجعت السيدة "وايت" بخوف، بينما تناوله الابن وتفحصه باهتمام.

– وما الشيء الغريب بشأنه؟

تساءل السيد "وايت" بينما يتناوله من ابنه ليتفحصه بدوره ، ثم يضعه على المائدة.

قال الرقيب:

– هناك لعنة صنعها أحد السحرة القدامى.. ساحر قوي جدًا أراد أن يبين أن القدر يحكم حياة الناس، و أن من يحاول تغييره إنما يفعل ذلك فقط ليلقى حتفه. فجعله يحقق ثلاث أمنيات لثلاثة رجال مختلفين.

كان منفعلًا و هو يتحدث، فأدرك مستمعوه أنهم آذوه بضحكهم الخافت.

قال "هربرت" متذاكيًا:

– حسناً ، و لَم لم تحقق أمنياتك الثلاث يا سيدي؟

لم يلقِ "موريس" بالًا لاندفاع الشاب وقال بهدوء:

– بلى فعلت ...

و شحب وجهه!

– و هل تحققت الأمنيات؟

سألت السيدة.

- بالفعل تحققت أماني الرجل الأول.. لا أعرف ماذا كانت الأمنية الأولى والثانية، ولكن الثالثة كانت الموت، وهكذا حصلت على المخلب.

كانت نبرات صوته قوية واثقة حتى أنهم سكنوا تمامًا.

قال الرجل العجوز:

- إذا كنت قد حصلت على أمانيك الثلاثة، فإنه غير مفيد لك الآن يا "موريس" ... فلم تحتفظ به حتى الآن؟

هز العسكري رأسه قائلًا ببطء:

- الولع ربما!

قال المضيف وهو يراقبه باهتمام:

- إذا كان بإمكانك أن تتمنى ثلاث أمنيات أخرى.. هل ستفعل؟

- لا أعرف ... لا أعرف حقًا!

أخذ المخلب بين الإبهام والسبابة، و فجأة رماه في النيران، فأطلق المضيف صيحة استنكار، و انحنى بسرعة لينتزعه من بين النيران.

صرخ العسكري:

- دعه يحترق أفضل ...

- إذا لم تكن تحتاجه يا "موريس" فأعطني إياه ...

- لا! لقد رميته في النيران. لو احتفظت به فلا تلومن إلا نفسك لما سيحدث. اقذفه في النيران مجددًا كرجلٍ عاقل.

هز الآخر رأسه رافضًا ثم تفحص المخلب عن قرب وقال:

- كيف تفعلها؟

- امسكه في يدك اليمنى وتمن بصوتٍ عال.. لكنني أحذرك من العواقب.

قالت السيدة "وايت" بينما تنهض لإعداد العشاء:

- الأمر يبدو مثل ألف ليلة وليلة.. ألا تعتقد أن بإمكانك أن تتمنى لي أربعة أزواج من القفازات؟

أخرج الزوج المخلب من جيبه، ثم انفجر الثلاثة في الضحك بينما أمسكه الرقيب بقوة وارتسمت نظرة انزعاج على وجهه.

- إذا كان لا بد من التمني، فتمن شيئا مهمًا!

أعاد السيد "وايت" المخلب لجيبه، ثم دعى صديقه للمائدة، ونسوا جميعاً كل شيء عن المخلب أثناء إعداد العشاء، وبعد العشاء جلس الجميع للاستماع إلي باقي مغامرات "موريس" في الهند بإعجاب.

قال "هربرت" لنفسه بينما الباب ينغلق خلف الضيف الذي غادر مبكرًا ليلحق بقطاره الأخير:

- " إذا كانت القصة بشأن مخلب القرد مثل باقي الحكايات التي أخبرنا بها، فلن نستفيد منه بأي شيء.

سألت السيدة "وايت" زوجها:

- هل أعطيته أي شيء مقابل المخلب؟

- بندقية لم يكن يريدها، لكنني أصررت،وقد طلب مني أن أتخلص من المخلب مرة أخرى.

قال "هربرت" برعبٍ مصطنع:

- لحسن الحظ، لِمَ؟ سنكون أثرياء ومشهورين وسعداء. تمن أن تكون امبراطورًا يا أبي كبداية، فلا يمكن لأحد أن يسيطر عليك بعدها.

ثم لفّ حول المائدة ليقنع السيدة "وايت".

أخذ السيد "وايت" المخلب من جيبه، وتفحصه بشك، ثم قال ببطء:

- لا أعرف ما أريد أن أتمناه، هذه حقيقة.. أعتقد أن لدي كل ما أريد.

قال "هربرت" ويده على كتفه:

– لو أنك نظفت البيت، فستكون سعيدًا، أليس كذلك؟ حسنًا، تمنّ مائتي جنيه . هذا سيفي بالغرض.

حمل الأب المخلب وهو يملؤه الخجل من مدى سذاجته بينما غمز الابن لوالدته متظاهرًا بالجدية، ثم جلس على البيانو ليعزف بعض النغمات المؤثرة.

قال الأب بصراحة:

– أتمنى مئتي جنيه.

حيّا الابن والده بنغمة من البيانو، قطعتها بصرخة مرتعشة من الرجل، فانطلق الابن والأم نحوه.

صرخ الرجل وهو يحملق في الشيء الملقى على الأرض بقرف:

– لقد تحرك.. لقد تحرك عندما نطقت الأمنية.

قال الابن ملتقطًا المخلب ليضعه على الطاولة:

– حسناً، لا أرى المال، ولا أظن أنني سأراه.

قالت الأم:

– ربما تكون تخيلات يا عزيزي.

هز رأسه وقال:

- لا عليكما، على الأقل لم يتأذى أحد.

جلسوا بجانب النيران مجددًا،فيما جلس الرجلان يدخنان الغليون، وبالخارج كان صوت الريح أعلى من أي وقتٍ مضى.

حينها بدا الأب متوترًا عندما سمع صوت الباب في الدور العلوي... ساد الصمت حتى قام الرجلان للنوم.

تمنى لهم الفتى ليلة سعيدة وأتبع قائلًا:

- ربما تجد النقود في حقيبة على سريرك، وستجد شيئًا بشعًا يراقبك من أعلى الدولاب بينما تضع النقود غير المشروعة في جيبك.

جلس الشاب وحيدًا في الظلام يحملق في النيران الخامدة تقريبًا، يتخيل أنه يشاهد وجوهًا فيها. كان الوجه الأخير لقردٍ بشع يحدق فيه بذهول حتى أصبح واضحًا جدًا، فأطلق ضحكة مرتعبة، ومد يده نحو المائدة كي يمسك بكوب الماء ويلقيه على النيران، لكن يده أوقعت المخلب. مسح يده في معطفه و ذهب للنوم.

***

وبينما تدفقت أشعة شمس الشتاء اللامعة حول مائدة الإفطار، سخر "هربرت" من مخاوفه. كان المخلب المتسخ ملقى على الخزانة مهملًا في دلالة على عدم الإيمان بأهميته .

قالت السيدة "وايت":

- أعتقد أن كل هؤلاء الجنود المسنون متشابهون.. إن فكرة استماعنا إلى هذا الهراء مرعبة! كيف يمكن للأماني أن تتحقق هذه الأيام، و لو تحققت، فأي ضرر قد تحدثه مائتي جنيه؟

قال الابن ضاحكًا:

- ربما تسقط على رأسه من السماء فتؤذيه.

قال الأب:

- "موريس" قال أن الأشياء تحدث بشكل طبيعي، حتى أنها قد تكون من قبيل المصادفة.

قال "هربرت" وهو يقوم من على المائدة:

- حسنًا! لا تنفق المال حتى أعود.. أخشى أن تحولك النقود إلى رجل طامع بخيل، و قد نتبرأ منك.

ضحكت والدته ولاحقته إلى الباب وهي تتابعه على الطريق ، ثم عادت للمائدة. كانت سعيدة لخيبة آمال زوجها، ولم تنس أن تشير إلى خرافات الجنود القدامى المتقاعدين المخمورين عندما تلقت فاتورة الخياط. قالت وهي تعد العشاء:

- سيكون له المزيد من النكات حول هذا عندما يعود.

قال الرجل و هو يصب لنفسه بعض البيرة:

– أعتقد هذا، ولكن برغم كل شيء، فقد تحرك الشيء في يدي، أقسم لكِ أن هذا ما حصل.

– لقد توهمت هذا فقط.

– أقول لكِ أنه تحرك.. لست موهومًا ، لقد.. ماذا حدث؟

لم ترد عليه زوجته حيث كانت مشغولة بمراقبة رجل غريب بالخارج يحدق بالبيت بشكل متردد، وبدا أنه يفكر في الدخول إليه. فكرت بخصوص المئتي جنيه، لكنها لاحظت أن الرجل لم يكن مهندم الشكل ويرتدي قبعة حريرية لامعة.

توقف الرجل ثلاث مرات أمام البوابة مترددًا في الدخول، ثم تقدم للمرة الرابعة، ووضع كفه على البوابة، وفجأة فتحها وخطى للداخل عبر الممر. مدت المرأة يدها خلف ظهرها وفكت حبال مريلة المطبخ، ثم وضعتها تحت وسادة المقعد. ثم أسرعت تفتح الباب للغريب الذي بدا عليه الإحراج، وأدخلته إلى الحجرة معتذرةً عن عدم ترتيبها، ثم انتظرت أن يطرح ما يريده، لكنه ظل صامتًا.

– لقد طُلب مني المجيء..

قال هذه العبارة ثم توقف مترددًا، وأتبع:

– أنا مندوب شركة (ماو و ميجينز).

بادرته المرأة بهلع وأنفاسٍ متقطعة:

– هل حدث شيء؟ هل حدث شيء لهربرت؟ ماذا حدث ؟

قاطعها زوجها:

– صبرًا، عزيزتي!

ثم أتبع متعجّلًا: اجلس من فضلك، ولا تستبق الأحداث، أنت لم تحضر أخبارًا سيئة، أنا متأكد يا سيدي.

قال الزائر:

– أنا آسف!

قالت الأم:

– هل أصابه أذى؟

حنى الزائر رأسه في أسف، و هزها قائلًا بصوتٍ خافت:

– إصابة بالغة ... لكنه لا يشعر بالألم الآن.

– الحمد لله

قالت الزوجة متنفسةً الصعداء ... شكرًا لله، شكرًا لله.

ثم توقفت فجأة بعد أن فهمت المعنى المخيف من وراء كلامه، ورأت تأكيدًا لمخاوفها الفظيعة في تجنبه الغريب لنظراتها.

التقطت أنفاسها المتسارعة، التفتت لزوجها بطيء الفهم واضعة يدها المرتعشة على يده.

قال الزائر بعد فترة بصوت منخفض:

– لقد أطبقت عليه الآلة.

– أطبقت عليه الآلة! كرر الأب في ذهول، ثم التفت إلى النافذة يحدق فيما خارجها بذهول تاركًا يده تضغط يد زوجه كما كان يفعل منذ أربعين عامًا.

– كان الشيء الوحيد الذي تبقى لنا.

سعل الزائر، ثم نهض و تقدم نحو النافذة ببطء، ثم قال:

– ترغب الشركة في أن أنقل تعاطفهم الصّادق معكم في مصابكم.. أرجو أن تتفهما أنني مجرد خادمهم وعليّ فقط إطاعة الأوامر .

لم تكن من إجابة، كان وجهه المرأة شاحبًا وظلّت تحدق به بينما تحاول التقاط أنفاسها، وعلى وجه الزوج كانت نظرة مثل النظرة التي ارتسمت على وجه صديقه الجندي بالأمس.

– أريد أن أقول أن الشركة تخلي مسؤوليتها عمّا حصل، فلا مسؤولية عليها على الإطلاق، لكن نظير خدمات ابنكم فإن الشركة ترغب في تعويضكما بمبلغٍ معين من المال.

ترك الأب يد زوجته، وهبّ واقفًا يحدّق برعب في وجه الزائر، وبصعوبة خرجت الكلمات من شفتيه الجافتين وقال:

- كم؟

- مائتي جنيه ...

أطلقت الزوجة صرخة بينما رفع الرجل يده بضعف ثم سقط فاقدًا الوعي.

***

في المقبرة الضخمة الجديدة على بعد ميلين، دفنت العائلة المكلومة فقيدها، وعاد الأب والأم إلى بيت يعمّه الصمت والظلام. تم كل شيء بسرعة بالغة حتى أنهما لم يستطيعا استيعاب ما حدث، وظلا ينتظران حدوث شيءٍ جديد.. شيء يخفف الحمل القاسي على القلبين العجوزين.

لكن الأيام مرت، وحل اليأس محل الانتظار، اليأس الذي يطلق عليه أحيَنا بطريق الخطأ: الفتور.

أحيانًا كانا يتبادلان الكلمات بصعوبة، والآن لم يعد لديهما ما يتحدثان عنه.. كانت أيامهما طويلة لحد الإرهاق.

بعد أسبوع تقريبًا استيقظ الرجل فجأة في منتصف الليل، ومد يده متحسسًا الجانب الآخر ليجد نفسه وحيدًا في الفراش.

كان صوت البكاء الخافت قادم من جانب النافذة، فرفع نفسه في السرير واستمع.. قال بلطف:

- أغلقي النافذة.. ستصابين بالبرد.

- البرد أشد عليه..

ثم أجهشت في البكاء ثانيةً.

تلاشى صوت بكائها من أذنه مرة أخرى.

كان السرير دافئًا وعينيه مثقلتين بالنعاس، فنام بشكلٍ متقطع حتى استيقظ على صرخة متوحشة من زوجته.

- المخلب!.. مخلب القرد!

ردّ عليها بقلق شديد:

- أين؟ أين هو؟

تقدمت نحوه بخطوات مرتعشة وقالت بصوتٍ خافت:

- أريده.. أنت لم تدمره، أليس كذلك؟

- إنه في نفس المكان الذي تركناه فيه، ولكن لَمَ تسألين؟

ضحكت وبكت في نفس الوقت، ومالت نحوه لتقبّله، ثم بدأت تتحدث بشكلٍ هيستيري.

– لم أفكر به سوى الآن.. لِمَ لم م أفكر به من قبل؟ لماذا لم تفكر به أنت؟

– أفكر في ماذا؟

– الأمنيتان المتبقيتان.. لقد تمنينا مرة واحدة فقط.

قال بصوتٍ عالٍ جدًا:

– ألم تكن أمنية واحدة كافية؟

صرخت هي بدورها قائلةً:

– لا!ستتمنى مرة أخرى. اذهب وأحضره بسرعة، و تمن أن يعود ابني حيًا.

اعتدل الرجل في الفراش، و قذف الغطاء من على أطرافه المرتجفة وقال:

– يا إلهي! لقد جننتِ.

– أحضره.. أحضره بسرعة وتمنّ.. آه، ولدي.. ولدي ! "

أشعل الرجل عود ثقاب، وأضاء به شمعة وقال مترددًا:

– عودي إلى الفراش.. أنت لا تعرفين ما تقولين.

– لقد تحققت أمنيتنا الأولى، لم لا تتحقق الثانية؟

رد بارتباك:

– محض مصادفة!

صرخت المرأة وهي ترتعش والدموع تتساقط من عينيها:

– اذهب، وأحضره وتمنّ أن يعود "هربرت".

استدار الرجل ونظر إليها، ثم قال بصوتٍ مرتعش:

– لقد مات منذ عشرة أيام، بالإضافة لأنه.. لم أرد إخبارك، لكن.. لقد تعرفت عليه من ملابسه فقط. إذا كنت لم تقدري على رؤيته بهذا الشكل، فكيف الآن؟

صرخت المرأة و جرته نحو الباب:

– أعده الآن! هل تظن أنني سأخاف من الطفل الذي أنجبته؟

هبط في الظلام، وتحسس طريقه لغرفة الضيوف، ومن ثم إلى الرف. كان المخلب في مكانه، و خالجه خوف من الأمنية غير المنطوقة التي ستعيد ابنه المشوه قبل أن يترك الحجرة، والتقط أنفاسه عندما شعر أنه فقد الإحساس باتجاه الباب. غمر العرق جبينه بينما يتحسس طريقه عبر المائدة، ثم تحسس طريقه نحو الحائط حتى وجد نفسه في الممر الصغير ممسكًا بتلك اللعنة الصغيرة في يده.

وجد وجه زوجته متغيرًا وهو يخطو إلى الحجرة. كان وجهها شاحبًا وعيناها محدقتين، وبدا له أن هناك شيء غير طبيعي بشأنها. كان خائفًا منها.

– تمنّ.. صرخت بقوة.

– هذه حماقة.. ليس هذا صحيحًا.

– تمنّ!.. كرّرت الزوجة.

رفع المخلب وقال:

– أتمنى أن يعود ابني حيًا.

سقط المخلب على الأرض، ورمقه الرجل خائفًا، ثم تداعى مرتجفًا على مقعده بينما مشت المرأة، وعيناها تلمعان إلى النافذة لترفع الشيش. ظل الرجل جالسًا حتى شعر بالبرد يحيط به، يحدّق بين الحين والآخر نحو وجه زوجته المتطلعة من النافذة.

انتهت الشمعة التي احترقت حتى نهايتها ملقية ظلالها النابضة الأخيرة على الجدران، ثم التمعت لمعة أخيرة قوية، وانطفأت بعدها تمامًا.

شعر الرجل براحة خفية لفشل التعويذة، وآوى إلى الفراش، وبعد دقيقة أو اثنتين انسلّت زوجته بجانبه بفتورٍ صامت.

غرق الاثنان في دقات عقارب الساعة الرتيبة، ولم ينبس أحدهما ببنت شفة. ثم جاء صرير من سُلّم البيت، وانسل فأر مزعج عبر السور.

كان الظلام دامسًا، و بعدما استلقا لفترةٍ من الوقت، استجمع الزوج شجاعته، وأخرج عود ثقاب آخر من العلبة وأشعله، ثم هبط السلم لإحضار شمعة.

في نهاية السلم انطفأ عود الثقاب، فتوقف ليشعل آخر، وفي نفس اللحظة سمع صوت طرقة خافتة لا تكاد تسمع على الباب الرئيسي.

سقطت العلبة من يده، وتجمد في مكانه صامتًا حتى سمع نفس الطرقة من جديد. هرع صاعدًا السلم حتى وصل إلى حجرته، فأغلق الباب خلفه، ثم دوت طرقة ثالثة في أنحاء البيت.

صاحت الزوجة ووقفت:

– ما هذا؟!

رد عليها زوجها بصوتٍ مرتعد:

– فأر! فأر مر أمامي على السُلّم.

جلست الزوجة في فراشها تنصت جيدًا، ودوت طرقة عالية عبر جدران البيت.

– إنه ابني! إنه "هربرت" ...

صرخت وركضت نحو الباب، لكن زوجها لحق بها وأمسكها بذراعيه وطوّقها بإحكام.

– ماذا ستفعلين يا مجنونة؟

قاومته وهي تقول:

– إنه ولدي! .. إنه "هربرت" ... نسيت أنه على بعد ميلين ... لماذا تمسك بي؟ اتركني .. يجب أن أفتح له الباب.

صاح الرجل بصوتٍ مرتعش:

– بحق السماء لا تدخليه البيت!

– أتخاف ابنك؟ اتركني.. إني آتية حالًا يا "هربرت".. إني آتية.

دوت طرقة أخرى، ثم أخرى.

تحررت المرأة أخيرًا من قبضة زوجها، و هرعت عبر الحجرة. لاحقها الزوج حتى الباب وهو ينادي عليها بينما تركض عبر سُلّم البيت.

سمع رنين السلسلة، والمزلاج السفلي يُسحب ببطء نحو النهاية. ثم دوى صوتها متوتراً و لاهثًا.

صاحت بصوتٍ عال:

– المزلاج! تعال، لا أستطيع الوصول إليه.

لكن زوجها كان منحنيًا على يديه و ركبتيه يبحث حثيثًا عن المخلب. فقط لو يجده قبل أن يدخل ذلك الشيء خلف الباب إلى البيت.

انهالت الطرقات على الباب وارتعدت أرجاء البيت من صداها، وسمع صوت مقعد يجر بينما زوجته تضع المقعد أمام الباب. سمع صوت المزلاج يقترب من نهايته، و في نفس اللحظة وجد المخلب، ثم همس بأمنيته الثالثة و الأخيرة في حالةٍ من الجنون.

توقف الطرق فجأة، ولو أن أصداؤه ظلت تتردد عبر أرجاء البيت، وسُمع صوت المقعد يُجر للخلف و الباب يُفتح.

اقتحمت البيت نسمة هواء باردة عبر الباب وصعدت أعلى السُلّم،ودوت صرخة مرعبة عالية وطويلة من زوجته أعطته الشجاعة ليلحق بها حتى البوابة، حيث كان مصباح الشارع المرتعش يضيء بهدوء على طريقٍ هادئ ومهجور!

يرقات

إ. ف. بينسون



قرأت في جريدةٍ إيطالية منذ شهر أو إثنين أن "فيلا كاسكانا" التي قضيت فيها وقتًا قد تمت إزالتها، والآن هناك مصنعٌ ما تحت الإنشاء في مكانها. الآن زال السبب الذي قد يمنعني من الكتابة عن تلك الأشياء التي شهدتها (أو تخيلتها) هناك بنفسي في إحدى الغرف وفي ركنٍ ما في الفيلا المقصودة. ولم يعد هناك أي سبب يمنعني من الكتابة عن الأحداث التي وقعت بعد ذلك، والتي من شأنها – وربما لا – (حسب رأي القارئ) أن تلقي الضوء أو تكون متعلقة بعض الشيء بهذه التجربة.

كانت "فيلا كاسكانا" مكانًا مبهجًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ولكن لو كانت قائمة إلى الآن لما كان هناك أي شيء في الدنيا يحملني يومًا على الذهاب إليها مجددًا، وأنا أعني ما أقوله حرفيًا. أقول هذا لأني أعتقد أن المكان هذا ملعون بصورة لا يتخيلها أحد. لا تقدر العفاريت والأرواح – مهما بلغت درجة شرّها – أن توقع الأذى بهذا الشكل. أجل، العفاريت والأرواح مخيفة فعلًا، ولكن بإمكان

الشخص الذي تطارده أن يتغلب عليها. على العكس، قد تجد بعض العفاريت والأرواح ودودة وطيبة. ولكن ما رأيته في "فيلا كاسكانا" لم يكن طيبًا أبدًا، حتى مطارداته كانت مختلفة بعض الشيء، ولا أعتقد أني تغلّبت على الأمر أكثر مما فعل "آرثر إنجليز".

تقع الفيلا على تلةٍ من البلّوط الأخضر بالقرب من مدينة سيستري ليفانتي على الساحل الإيطالي التي تطل على البحر الأزرق المسحور، ومن خلفها غابات الكستناء الخضراء الشاحبة التي يصل مداها حتى التلال وصولًا إلى أشجار الصنوبر التي تضفي عليها لونًا أسود يغطي المنحدرات. يحيط بالفيلا حديقة تأخذ زخرفها وتزهر ورودها في منتصف الربيع، تنبع منها الروائح الكريمة مثل الماتجوليا والزهر التي تنقلها رياح البحر العليل، وتتدفق كالتيار عبر غرف الفيلا المحدّبة.

في الطابق الأرضي من الفيلا تصطف الأقواس الزخرفية الأنيقة على ثلاث جهات، وبالأعلى توجد بلكونة تطل على بعض غرف الطابق الأول. السُلّم الرئيسي للفيلا واسع، من الرخام الرمادي، يخرج من صالة الفيلا إلى الغرف الثلاث؛ غرفتين كبيرتين للجلوس وغرفة نوم مزوّدة بجناح. تلك الغرفة لم تكن مسكونة على عكس الغرفتين الأخريتين. يؤدي السُلّم إلى الطابق الثاني الذي يتكون من عدد من غرف النوم؛ والتي سكنت إحداها، بينما من الناحية الأخرى

من المترل المؤدي إلى الطابق الأول عدة درجات تهدي إلى جناحٍ آخر كان يسكن إحدى غرفه "آرثر إنجليز" الذي أتحدث عنه، وكذلك المرسم الخاص به. خارج غرفتي كان هناك سُلّم أعلى الفيلا يؤدي إلى سُلّم الطابق الأول، ثم إلى السُلّم المؤدي إلى غرف "إنجليز". أما بالنسبة لبقية الغرف في الجناح الآخر من الفيلا، فكان يشغلها "جيم ستانلي" – مضيّفي – بخلاف الجزء المخصص للخدم.

كنت قد وصلت لتوّي وقت الغداء بعدما قاربت شمس منتصف شهر مايو على المغيب. كانت الحديقة صاخبة بالألوان والروائح العطرة. وقعت عيناي على تلك الألوان وداعبت أنفي تلك الروائح حتى بعد مسيرتي المتعبة قدومًا من المرسى في يومٍ مشمس حار، فشعرت بجمال الفيلا يلامس بشرتي. ولكن عندما خطت قدماي داخل الفيلا شعرت بشيءٍ مريب.. أترك لكم تخمين هذا الشعور. كان شعورًا غريبًا، ولكنه قوي جدًا.

حتى عندما رأيت بعض الخطابات في انتظاري على منضدة ردهة الفيلا شعرت بأن هناك تفسير ما لشعوري هذا.. ربما أخبار سيئة لي. ولكن عندما فتحت الخطابات لم أجد ما يرضي هاجسي.. تلك الخطابات حملت أخبارًا جيدة عن أصحابها. إلا أن الاطمئنان المؤقت لم يبدد هواجسي.. هناك شيء مريب في هذا البيت الهادئ الفوّاح.

يصعب عليّ أن أعترف بهذا نظرًا لكوني أحد المعتادين على النوم بسرعة والاستيقاظ أيضًا بسرعة، إلا أن ليلتي الأولى في الفيلا لم تشهد نومًا هنيئًا على الإطلاق. يوضّح هذا الأمر كيف أني أحلم كثيرًا (لو كان ما رأيته في الفيلا حلمًا أصلًا)، وهو ما يؤكد إحساسي بأن شيئًا ما دبّ بداخلي منذ لحظة دخولي الفيلا.. شيء لم يكن بداخلي من قبل، ورغم ذلك احتلّ روحي. ولكن برغم هذا الهاجس الشرير، إلا أن بعض الكلمات والأحداث التي تواتيني بالنهار تؤكد لي صحة ما أظنه قد حدث تلك الليلة.

أخذتني السيدة "ستانلي" بعد تناول الغداء في جولة في أرجاء المنزل، وفي تلك الأثناء أشارت إلى غرفة النوم غير المسكونة التي تطلّ على الغرفة التي تناولنا الغداء فيها.

قالت لي:

– تركنا هذه الغرفة غير مسكونة لأنني و"جيم" لدينا غرفة نوم رائعة بالإضافة إلى غرفة ملابس كما ترى.. فلو أردنا استخدام هذه الغرفة سيتحتّم علينا تحويل غرفة الغداء إلى غرفة ملابس وننتقل لتناول غدائنا بالأسفل. على كل حال فإن لدينا جناح صغير بالأسفل، وفي الممر الآخر هناك جناح صغير آخر تابع لـــ"إنجليز". أذكر أنك قلت قبل ذلك أنه كلما ابتعدنا عن الطابق الأرض صرنا أكثر سعادة، لذا خصّصت تلك غرفة أعلى الفيلا بدلًا من هذه.

الحق يُقال أني شعرت بشكٍ وغرابة يتسابقان إلى عقلي ... بالضبط كهاجسي فور دخولي الفيلا. لا أرى أي داعٍ لهذا الشرح الطويل للسيدة "ستانلي" ... وقد يكون في جعبتها أكثر من ذلك. حينها شعرت بأن أمرًا ما آخر يكتنف تلك الغرفة غير المسكونة.

ولكن كان هناك شيء آخر سبّب لي كوابيس ...

على الغداء تحول الحديث فجأة إلى الأشباح. أعرب "إنجليز" بنبرته الواثقة عن إيمانه بأن كل من يؤمن بوجود ظواهر خارقة هو مجرد أحمق لا أكثر ولا أقل. سكت الكلام بعدها على الفور، ولا أتذكر أن شيئًا حدث أو قيل حينها.

توجّه كلٌ منا إلى فراشه مبكرًا، حتى أني كنت أتثاءب على سُلّم البيت بعد أن غلبني النعاس. كانت غرفتي حارة، ففتحت النوافذ على مصرعيها، فاقتحم الغرفة نور القمر الأبيض وأصوات البلابل المغرّدة. خلعت ملابسي بسرعة ودخلت فراشي، صحيح أن النعاس كان يغالبني، إلا أن يقظتي تغلبت عليه، كم أرضاني هذا! شعرت بسعادة غامرة وأنا أسمع أصوات البلابل المغرّدة وأرى نور القمر الأبيض. وفي تلك الأثناء أعتقد أني نمت تمامًا، وما تلى ذلك كان حلمًا. توقفت البلابل عن الغناء وانحسر نور القمر الأبيض، على ما أعتقد. حينها اعتقدت بدون سبب معقول أني سأبقى مستيقظًا على هذا الوضع طوال الليل، وربما أقرأ شيئًا. تذكرت أني تركت كتابًا أثار اهتمامي عندما كنت في غرفة الطعام في الطابق الأول. قمت من فراشي وأضئت شمعة ونزلت عبر سُلّم البيت. توجهت إلى غرفة الطعام

ورأيت الكتاب مستقرًا على طاولة جانبية، وعلى حين غرة رأيت باب غرفة النوم غير المسكونة مفتوحًا. يخرج من الغرفة ضوءٌ رمادي غريب، لا هو نور القمر ولا هو ضوء الفجر، فنظرت داخل الغرفة. كان الفراش مواجهًا للباب تمامًا وأعلاه أربعة ملصقات ضخمة مثبتة بنسيجٍ مزخرف.

كان الضوء الرمادي مصدره الفراش، أو ما كان على هذا الفراش.. يرقات ضخمة أصدرت هذا الضوء، حجم الواحدة منها قدمٌ أو أكثر، تتلوّى بعضها فوق بعض. اليرقات مضيئة بشدة، حتى أنها أضاءت الغرفة بأسرها ولكن هذه اليرقات لم يكن لديها أقدام مثل اليرقات الطبيعية، بل صفوف من الكلّابات مثل التي تمتلكها الكابوريا. تمسك بغطاء الفراش بتلك الكلّابات وتتحرك إلى الأمام. لونها كان رماديًا مصفرًا، وأجسامها مغطاة بالدمامل والانتفاخات.

مئات من اليرقات تزحف فوق بعضها البعض حتى صارت كالهرم. سقطت إحدى اليرقات على الأرض فجأة وأصدرت صوتًا مكتومًا، وعلى الرغم من أن الأرضية كانت من الأسمنت المسلح، إلا أن اليرقة قامت على كلّاباها مجددًا وكأنها تقوم على أرضية من الطين، ثم عادت إلى الفراش من جديد بصحبة زميلاتها المخيفات. لم يكن لليرقات وجوه، مجرد فم مفتوح من الجانبين حتى تتنفس.

فجأة بدا لي أن اليرقات أحسّت بوجودي اتجهت كل الأفواه بمختلف أحجامها ناحيتي، ثم بدأت تتساقط من على الفراش بأجسامها الناعمة المكتظة باللحم على الأرض، وأخذت تتلوّى

باتجاهي. وكأن الشلل تملّكني للحظة، لكن وجدت نفسي أركض خارج الغرفة متجهًا عبر السُلّم إلى غرفتي، وشعرت ببرودة عتبات السُلّم الباردة في قدميّ العاريتين. دلفت إلى داخل غرفتي وضربت الباب بعنف –تأكدت الآن أني لا أحلم – ووقفت بجانب فراشي والعرق يقطر مني من شدة الرعب. مازال صوت ضرب الباب يقرع في أذنيّ. ولكن إذا كان هذا كابوسًا، فلمَ لا يهدأ خوفي من منظر تلك الوحوش العملاقة وهي تسقط من الفراش وتتجه ناحيتي؟ قد أكون تحت تأثير الحلم المرعب – لو كان هذا حلمًا أصلًا – ولكن لا يبدو لي أن ما حصل كان حلمًا. لساعاتٍ طويلة أخذت أقوم وأجلس من هنا إلى هناك حتى مطلع الفجر، ولم أجرؤ ولو لثانية على الاستلقاء، فأي حركة أحسها أو صوت أسمعه أظنه صادر من تلك اليرقات. تلك الكلابات قادرة على تقطيع الخشب والإسمنت المسلح نفسه، حتى الفولاذ لن ينجو منها.

هدأ روعي وراح خوفي مع أول شعاع نهار مشمس وأول نسمة ريح عليلة. ومهما كان خوفي الشديد، فقد ذهب الآن ولم أعد أشعر به. اختفى الظلام وأخذ مكانه النور، صحيح أنه كان بلا لون، إلا أنه اكتسى ببياضٍ شهي حتى غطى السماء كلها بجمال وأبهة.

أكثر ما أعجبني في نظام هذا البيت أن من حق الكل تناول الفطور أينما ووقتما أراد، ولم أصادف أيًا من الآخرين حتى وقت الغداء، حيث أخذت فطوري في البلكونة، وكتبت بعض الخطابات

وفعلت أشياءً أخرى حتى وقت الغداء. الحق يُقال أني هبطت لتناول الغداء متأخرًا قليلًا بعد أن بدأ الثلاثة الآخرون. بين سكينتي وشوكتي كان هناك صندوق صغير من الورق المقوّى.. تحدّث "إنجليز" فور جلوسي.

– انظر.. فأنت مهتم بالتاريخ الطبيعي. وجدت هذا الشيء يزحف فوق لحافي ليلة أمس ولا أعرف ما هو.

أعتقد أن توقعت شيئًا مًا في الصندوق قبل فتحه، فوجدته هو. بداخل الصندوق كان هناك يرقة صغيرة رمادية مصفرّة، على حلقاها دمامل وانتفاخات غريبة. كانت نشيطة جدًا تتسارع بين أركان الصندوق هنا وهناك. لم أرَ أقدام يرقات بهذه الغرابة من قبل، كانت تبدو ككلّابات الكابوريا. نظرت إليها وأغلقت الصندوق مجددًا.

– لا أعرف ما هذه، لكنها تبدو ضارة.. ماذا ستفعل بها؟

– أوه! سأحتفظ بها، فقد بدأت في التحول، وأريد أن أعرف إلى أي حشرة ستتحول.

فتحت الصندوق مجددًا ورأيت حركاها المتسارعة وهي تخيط شبكة شرنقتها. قال "إنجليز":

- لديها أقدامٌ غريبة أيضًا ككلّابات الكابوريا.. هناك اسم آخر غير "كابوريا"؟ آها إنه "السرطان".. لذا دعنا نسميها "سرطان إنجليز".

شيءٌ ما جرى في عقلي بدأ يجمّع لقطات رأيتها أو حلمت بها بجانب بعضها البعض. شيءٌ ما في كلماته بدا لي وكأنه يسلّط الضوء على كل ما رأيته، وارتبطت تجربتي المرعبة الليلة الماضية بما قاله. أخذت الصندوق وألقيته واليرقة بداخله من النافذة. بالخارج هناك طريقٌ من الحصى خلفه نافورة راقصة أسفل منها حوض سقط الصندوق بداخله.

ضحك "إنجليز" وقال:

- إذًا فالباحثون فيما وراء الطبيعة لا يحبّون الحقائق الدامغة.. يرقتي المسكينة!

انحرف الحديث مجددًا إلى موضوعاتٍ أخرى، اضطررت لسماع كل شيء بالتفصيل كما حدث بالضبط، آملًا في الحصول على أي معلومة عن أي أشياء غريبة أو متعلقة باليرقات. ولكن في اللحظة التي ألقيت فيها صندوق اليرقة من النافذة كنت قد جنيت على نفسي؛ فتفسيري الوحيد لتصرفي هو أن أحكي ما رأيته بالضبط على فراش تلك الغرفة غير المسكونة. وعلى الرغم من افتراض أن تحول تلك الخيالات إلى واقع ملموس يخفف عني بعض الخوف الذي سكن

روحي تلك الليلة، إلا أنه لا شيء من هذا القبيل قد حدث، بل صار هرم اليرقات التي غطت الفراش أكثر واقعية.. أمرٌ مخيف.

بعد الغداء قضينا ساعة أو إثنتين من الراحة نتجول في الحديقة أو نجلس أسفل أقواس الفيلا المزخرفة. كانت الساعة الرابعة عندما قررت الاستحمام وأيضًا "ستانلي" على الطريق المؤدي إلى النافورة التي ألقيت فيها ذلك الصندوق. كانت المياه ضحلة وصافية وفي قاعها رأيت بقايا الصندوق البيضاء. فكّكت المياه الصندوق، ولم يتبق منه إلا بضع شرائط وبقايا من الورق المبلل. في منتصف النافورة كان هناك تمثال "كيوبيد" إيطالي من الرخام تتساقط المياه من كيس أسفل ذراعه. تسلقت اليرقة قدم التمثال، بدت بنفس الغرابة، ومن الواضح أيضًا أنها نجت من تحطم سجنها وسلكت طريقها نحو الشاطئ، وها هي بعيدة عن متناولي تنسج شرنقتها حتى اكتملت.

نظرت إليها مجددًا وبدت لي كاليرقات التي رأيتها ليلة أمس. رأتني اليرقة وتوقفت عن نسج شبكتها وبدأت تزحف إلى أسفل القدم الرخامية ثم وصلت إلى المياه وسبحت كثعبان وسط النافورة متجهةً ناحيتي. سرعتها مذهلة (لأول مرة أعرف أن اليرقات قادرة على السباحة)، ثم تسلقت حافة الحوض قبل أن ينضم إلينا "إنجليز" الذي سرعان ما وقعت عيناه عليها وقال:

– ها هو "سرطان إنجليز" من جديد.. فيمّ العجل أيتها اليرقة؟

وقفنا بجانب بعضنا البعض على الطريق، وعندما اقتربت اليرقة منّا بمقدار بوصة توقفت وبدأت تخيط الشبكة مجددًا وكأنها لا تعرف الطريق التي تسير فيها. عدلت عن رأيها مجددًا وأخذت تتسلق حذاء "إنجليز" الذي قال:

– إنها تحبني ولكن لا أعرف إذا كنت أحبها أم لا.. إذا لم تنزل عن حذائي لربما سوف ...

هزّ "إنجليز" قدمه فسقط اليرقة على الحصى ودهسها.

مرت سويعات قليلة على انتصاف النهار الذي صار أثقل وأثقل بفضل عطر "سيروكو" القادم من الجنوب بدون شك، وفي تلك الليلة توجهت إلى غرفتي مجددًا وأخذ النعاس يغالبني بشدة، ورغم ذلك كان تفكيري حاضرًا أكثر من أي وقتٍ مضى.. هناك شيء ما مريب بهذا المنزل، شيء ما خطير يقترب. هذه المرة غلبني النوم وما هي إلا سويعات – لا أحصيها ولا أعرف كيف – حتى استيقظت أو حلمت بأني استيقظت، شعرت بأنه لا بد أن أستيقظ وإلا ندمت لاحقًا. مرة أخرى استلقيت محاولًا التغلب على هذا الخوف وأنا أقول لنفسي أني ضحية ذلك العطر الغريب، وأقول لنفسي أيضًا أن كل ساعة تمر تقربني من الخطر أكثر. صار هذا الشعور الأخير يفرض نفسه أكثر حتى صرت لا أقوى على مقاومته. ارتديت معطفي وبنطالي وخرجت من غرفتي متوجهًا إلى السُلّم، ولكن الوقت كان قد فات، تأخرت كثيرًا.

لم أكد أرى الأرض من كثرة اليرقات التي تسلقت السُلّم إلى هنا. صحيح أن أبواب غرفة الجلوس التي تطل على غرفة النوم التي رأيت فيها اليرقات ليلة أمس كانت مغلقة، إلا أن اليرقات كانت تخرج من فتحاتها وتتساقط الناحية الأخرى حتى عبر ثقب المفتاح. تتمطط أجسامها حتى صارت كالشريط حتى تمر من أضيق الفتحات، ثم تعود وتنتفخ من جديد. تحسست بعض اليرقات طريقها نحو الممر المؤدي إلى غرف "إنجليز"، والبعض الآخر تسلق سُلّم البيت وتوجه ناحيتي. كان السُلّم مغطى باليرقات.. أصبحت محاصرًا ولا أقوى على التفكير من شدة خوفي.

كثرت اليرقات فوق بعضها البعض واتخذت طريقها نحو غرفة "إنجليز". تقدمت اليرقات كالأمواج عبر الممر حتى رأيت أغلب اليرقات بأجسامها الرمادية اللامعة المضيئة تصل إلى بابه. حاولت الصراخ مرات ومرات لأحذره، وفي كل مرة أصرخ كانت اليرقات تبدل طريقها وتتجه نحوي، على الرغم من أني شعرت بعد قدرتي على الصراخ. تسلقت اليرقات باب غرفة "إنجليز" واقتحمت الغرفة من نفس الفتحات الدقيقة التي خرجت منها ... تسمّرت مكاني محاولًا بقدر الإمكان الصراخ لتحذيره ليهرب قبل أن يفوت الأوان.

الآن صار الممر شاغرًا تمامًا، ذهبت كل اليرقات. بدأت قدماي تشعر ببرودة الرخام الذي وقف فوقه.. ها هو الصباح يرسم خطوطه الأولى على الدنيا من ناحية الشرق.

بعد ستة شهور قابلت السيدة "ستانلي" في بيتٍ ريفي في إنجلترا. تحدثنا عن بعض الأشياء ثم قالت لي:

– لم أرك منذ أخبار "آرثر إنجليز" المفجعة منذ شهر ...

– ماذا حدث؟!

– ألم تعرف؟ أصابه السرطان، حتى أن الأطباء لم ينصحوه بإجراء جراحة.. لا أمل في علاجه. يقول الأطباء أن السرطان تمكّن منه تمامًا.

مرت ستة شهور على آخر مرة شاهدت فيها "إنجليز" ومنذ ذلك الحين لا أذكر أن يومًا مرّ بدون أن أفكر في تلك الأحلام التي كانت تواتيني (سواء كانت أحلام أو غيرها) في "فيلا كاسكانا".

أعقبت السيدة "ستانلي":

– أليس ذلك مفجعًا؟ فكّرت كثيرًا، هل أصيب بالسرطان في ...

– في الفيلا؟!

حملقت فيّ وتساءلت:

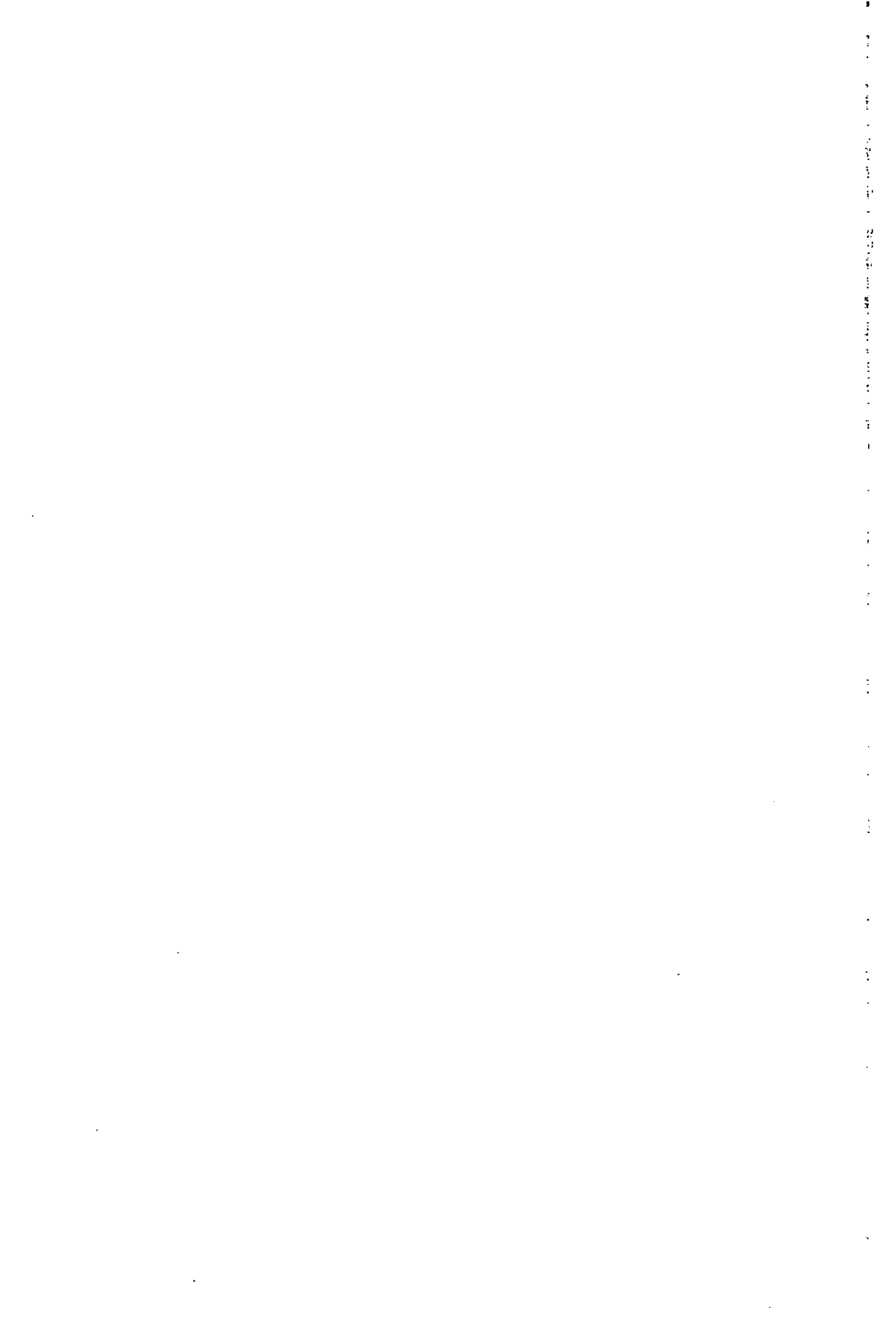
– لماذا تقول هكذا؟ كيف عرفت؟

ثم حكت لي.. تلك الغرفة غير المسكونة كان يسكنها شخصٌ أصيب بالسرطان قبل عام ومات. نصح الأطباء السيدة "ستانلي" بضرورة الحذر من بقاء أي شخص في تلك الغرفة ... صحيح أنها عقمتها وغسلتها ودهنتها بلون أبيض بالكامل، لكن ...



الفهرس





كان الظلام يحيطنا من كل جانب، باستثناء ضوء خافت صادر عن جمرة أوقدها العتّالون وشعاع ضوء ضعيف تائه بين الأشجار. النهر بجوارنا يصدر تمتمات خافتة. بإمكاننا سماع الصوتين معًا، وفجأة تحول صوت الأنين إلى صوت موسى حلاقة يقطع بحدّة وبشكلٍ لا يوصف ... استمر الصوت هكذا مع صوت "ستون" المتبرم بكلمات غير مفهومة كنعيب الغربان.

من قصة "لوكوندو" لإدوارد لوكاس وايت

ولكن عندما توجهت أنظارنا نحو الباب، وجدنا جثمان السيدة "مادلين" واقفًا مكفنًا. ترتدي فستانًا أبيض تغطيه الدماء، ويبدو على جسمها الهزيل أثر معاناة مريرة. بقيت ترتجف للحظات وتعاني جيئةً وذهابًا على عتبة الباب، ثم أطلقت صرخة أنين منخفضة وانهالت بالكامل على شقيقها. أذاقته من عنفها وآلام موتها الأخير، فسقط صريعًا على الأرض ضحيةً للرعب الذي ألقته عليه.

من قصة "سقوط بيت أشر" لإدجار آلان بو

صار يسمع الآن صوت أقدامٍ تصعد على درجات السلم. خطوات ثقيلة تأكد منها "ريتشارد" من دون حاجة لرؤية صاحبها أنه كان يرتدي حذاء دراجة نارية ... صار الرجل في صالة البيت الآن ... يرتدي في حذائه كعبين مرتفعين تطرق على أرضية بيته الخشبية اللامعة ... أحسّ "ريتشارد" بشللٍ فظيع قاومه بالكاد وانطلق صوب باب غرفة النوم ليغلقه قبل أن يصل ذلك الشيء إلى هنا، ولكنه تزحلق على بقعةٍ من الصابون، ثم سقط على الأرض فعليًا هذه المرة. افترش ظهره أرضيته المصنوعة من خشب البلّوط، وفور أن انفتح باب الغرفة وعبر الرجل الغرفة متوجهًا إليه،

من قصة "لعنة على الطريق" لستيفن كينج

لم يعد هناك سلام ولا راحة، فذلك الطيف يناديني لدقائق كثيرة بصوتٍ غريب وكأنه يتعذب، ويقول: "بالسفل هنااااااك! انتبه! انتبه!" ... يظل واقفًا يلوّح لي ثم يرّن جرسي الصغير ... مصيبة كبيرة ستقع. ستكون هذه المرة الثالثة لا شك في ذلك، بعد كل ما وقع من قبل. ولكن الأكيد أن هذه لعنة تطاردني، ماذا أفعل إذًا؟

من قصة "رجل الإشارة" لتشارلز ديكنز

Cover by #ahz_art


دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر

E-mail : daroktob1@yahoo.com

01111947957

